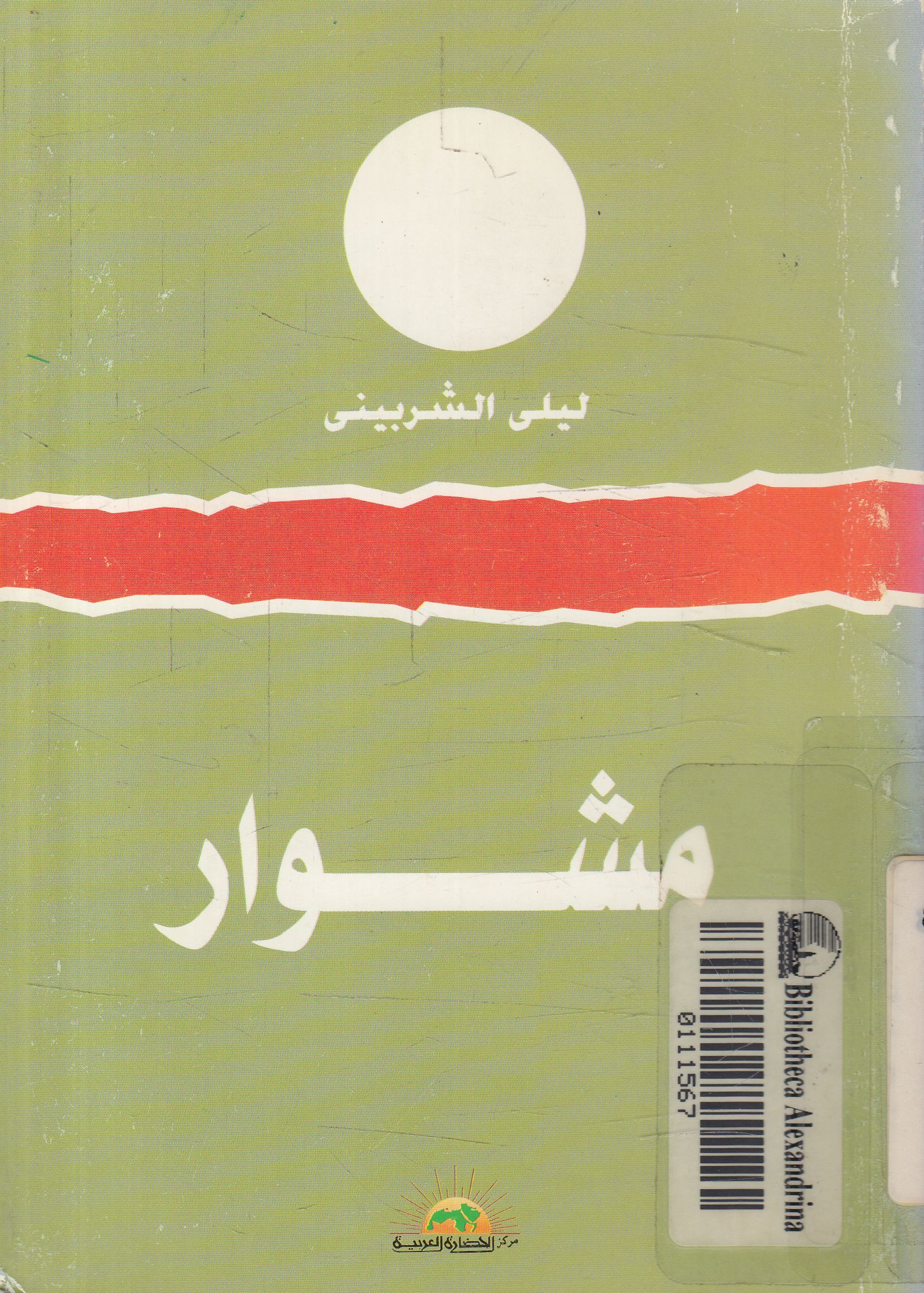

ليلى الشربينى
مشوار
مركز الحضارة العربية
Bibliotheca Alexandrina
0111567

مشـــوار

ليلى الشربينى

الغـلاف : جودة خليفة

الطبعة العربية الأولى : يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٨/١٨٢١

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-051-9



السلسلة الأدبية

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ :عبير كمال خضر

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

ليلى الشربينى

مشوار



رحلة إلى الشمال ..

باريــــس

وصلت أخيراً

مـحطة الأنفالـيد وهى مـحطة لإيرفـرانس داخل باريس يصلهـا بالمطار أتوبيس خاص بالشركة .

وجدت بالمحطة صناديق تشبه صناديق البوسطة لكنها كبيرة واسعة تسع شنط السفر . طلبت مفتـاحًا وضعت حقائبى إلا حقيبة صغيـرة أحتفظ فيها بغيار وخرجت من المحطة أبحث عن السفارة .

قبل أن أغادر محطة الأنفاليد جلست فى الكافتيريا أحتسى فنجان قهوة ، أود أن أفكر لحظة فى أمى قبل أن أخرج إلى باريس ، شـعرت بها بجانبى كما لم أشـعر من قبل ، حمدت الله أن لى أمًا كـأمى ، دائمًا بجانبى . وفى هذه اللحظة أردت أن أرتمى على صـدرها وأترك نفـسى للنعاس . ذكـرنى النعـاس بأن علىّ أن ابحث عن مكان أنام فيـه ، حقـيقى مـعى عنوان بيت الطالبات لكنى لا أعرف كيف أصل إليه وأيضًا إن كان فيه مكان لى أم لا ؟

دفعـت الحساب وأخـذت حقـيبـتى وخرجت ، كـانت الدنيا ليـلاً ، لم يبهرنى الشارع الذى خرجت إليه . وجدته صامتًا .

لم أكن أتوقع هذا الصمت من شارع فى باريس ، وجدت جوار الطوار طابوراً من التـاكسيـات ، أخذت أحدهـا وقلت له شارع بيننـا وهو الشارع

الموجود به السفارة المصرية ، حين وصلنا إلى الشارع سألنى السائق أى رقم ؟

دفعت الحساب ونزلت لأدق الجرس . لا أحد .

احترت . ماذا أفعل ؟ حين لمحت لافتة أوتيل ؛ قررت الذهاب إليه والمبيت به .

أعطونى حجرة غاية فى الأناقة ورقة الذوق ، لم أخش غلو ثمنها ، فأنا بحاجة إلى الراحة والاستجمام والخلو إلى نفسى .

أخذت حمامًا وبدلت ثيابى وجلست على الفوتيه الوحيد بالحجرة ؛ أفكر ..

لم أفكر طويلاً ، فأنا بحاجة إلى الأچندة التى أدون بها يومياتى ، أخذت فى الكتابة ، أشعر برعب . ماذا فعلت ؟

للحظة وددت العودة إلى مصر على أول طائرة ، تذكرت صديقة لأمى وهى تقول لها :

- بنتك مدللة والعيشة بره صعبة .

تنهدت

- صعبة ؟

سأصمد ، نعم سأصمد مثلما يصمد الرجال ، تركت الأچندة . وقمت إلى التليفون فأنا جائعة ، طلبت عشاءً .

ها هو الحلم قد تحقق وأنا الآن فى باريس ، لكن ماذا بعد ؟

ماذا لو لم يقبلنى بيت الطالبات ؟ ماذا لو سكنت وحدى ؟

إننى لم أجرب الوحدة من قبل .

فى الصباح جاءت السيدة المسئولة عن النظافة لتغير المناشف .

حيتنى وقالت إنها عرفت المصريين وقت أن كان الملك يحكم مصر وأنهم كثيراً ما كانوا ينزلون بهذه اللوكاندة لقربها من السفارة ، أضافت إنها أحبتهم وقدرتهم كثيراً .

قلت فى سرى :

- ربما كانوا باشوات يجزلون لها العطاء .

جاء الساقى بصينية الإفطار، استمتعت به قبل أنا أمد يدى إليه .

يبدو أن الأشياء هنا جميلة ومتقنة .

المهم الآن هو الذهاب إلى السفارة .

استقبلونى فى الدور الثالث - المكتب الثقافى - بترحاب وأقول : رقة .

طلبت سكرتيرة المستشار الثقافى بيت الطالبات الذى جئت بعنوانه من مدرسة الراهبات التى تعلمت بها ، وقالت لى إنهم فى انتظارى .

أعطانى المسئول عن الحسابات شيكًا - فقد وضعت أمى لحسابى فى البعثات مصاريف سنة - وصف البنك فهو لا يبعد كثيراً عن السفارة .

إذن علىّ الذهاب إلى البنك ومحاسبة اللوكاندة وأخذْ حقائبى من محطة الأنفاليد والذهاب إلى بيت الطالبات ، هه رحلة .

رحلة وفقت فيها .

استقبلتنى مديرة الدار مرحبة ، ساعدتنى طالبتان فى الصعود إلى الدور الخامس حيث الحجرة التى سأقتسمها مع أريانا وهى طالبة إيرانيـــة .

قلت : بداية طيبة .

قبل أن أخرج ثيابى من الحقائب لأرتبها بالدولاب ، سمعت طرقًا على الباب ، جاءت طالبة من ساحل العاج «أدماديان» .

قالت : إنها سمعت بقدومى من مديرة الدار وإنها فرغت لتوها من تحضير الغداء ، وهى تدعونى لمقاسمتها .

نعم فالدار لا تقدم إلا الأفطار والعشاء أما الغداء فغالبًا ما تتناوله الطالبات فى أحد مطاعم الجامعة المخصصة للطلبة ، وهى بثمن رمزى أو تطهين غداءهن بالدار فبكل دور موقد . ذهبت مع «أدماديان» إلى حجرتها وأنا أتشكر لها على دعوتها ،كان ، الغداء أرزًا ولحمًا بالصلصة والشطة .

عدت إلى حجرتى ، رتبت ثيابى ورتبت الحقائب فى المكان المخصص لذلك وجلست أنتظر الزميلة الإيرانية حتى أتعرف إليها . كان الوقت يمر ببطء فقلت أحصى النقود ..إن ما دفعته فى الشهر إيجارًا للحجرة محسوب معه الإفطار والعشاء يوازى تقريبًا ما دفعته للأوتيل مقابل ليلة ووجبة عشاء .

تمنيت أن تكفينى النقود ، سوف آخذ بالى من ذلك .

جاءت أريانا ، فتاة جميلة ، ذات ملامح شرقية ، دون العشرين ،

جاءت لتتعلم الفرنسية ، أبوها عميد كلية العلوم بطهران ، كان واضحًا أنها ثرية ، ثيابها ، مصاغها .. إلخ . قالت لى : إن بالدار أربع إيرانيات غيرها لكنهن بالجامعة فهن تجاوزن تعلم الفرنسية .

استدعتنى مديرة الدار بمكتبها ، كانت معها اثنتان من مجلس الإدارة فهمت أنهما راهبتان لا ترتديان الحجاب وأن مركزهما الرئيسى فى بروكسيل ، المديرة بلچيكية وينى ڤيتنامية تحضر لدكتوراه فى الفلسفة وإيف من موريشيوس قالت لى أيضًا إن تعليمات الدار تحتم الوصول قبل العاشرة ليلاً ما لم يكن هناك إذن خاص لحضور ندوة أو مسرحية ، وإنه يستثنى السبت والأحد . الطالبات يصلن فى الواحدة صباحًا ، قلت لها إنى لا أخرج بعد العشاء .

ابتسمت ابتسامة لم أفهمها واستمرت فى الحديث عن الدار ، نظامها وبروتوكولها الخ . الدار مكونة من سبعة طوابق وبدروم ، الدور السابع «المنسارد» من مميزاته أن الحجرات غير مزدوجة ، فالعديد من الطالبات تفضلنه حتى تكون لها حجرتها المستقلة ، والدور الأرضى به صالون ملحق بالريسبشن، وبه أيضًا المطعم ، أما الدور الأول فيه «شبيل» والحمامات وحجرات الآنسات أعضاء مجلس الإدارة وحجرة القراءة .

العشاء ...

جاء موعد العشاء ، نزلت إلى مطعم الدار وأنا أشعر ببعض حبات العرق على جبينى وسخونة فى وجهى ، أتراه قد احمر . كيف سأواجه كل هؤلاء الطالبات حوالى ٦٠ ؛ كما قالت المديرة فى آن واحد . وهل علىّ أن أسلم عليهن واحدة واحدة وأقدم نفسى أم أحيى الجميع عند

دخولى المطعم أم ماذا ؟ اجتزت عتبة الباب وأنا أنظر إلى الأرض ، نادتنى مديرة الدار ودعتنى إلى الجلوس إلى طاولتها ، كانت معها بعض الطالبات التونسيات وطالبة جزائرية ، قدمتنى إليهن وقدمتهن إلىّ .

وبدأ الحديث حول الأهرامات وأبو الهول والحضارة الفرعونية ، شعرت أنى آخذ نفسًا عميقًا وأستريح من الرهبة .

بعد العشاء دعتنى مديرة الدار إلى الصالون الذى توافدت إليه الطالبات الواحدة تلو الأخرى : آسيويات وأفريقيات وعربيات وإيرانيات وأوربيات .

جلست المديرة فى الصدارة وجوارها زميلاتها ، وجلست الطالبات فى حلقة ، قدمتنى المديرة ثم طالبت كلاً من الطالبات بتقديم نفسها وبلدها ودراستها .

بعد دردشة قصيرة انسحبت الطالبات ، بعضهن خرجن وبعضهن ذهبن إلى حجراتهن ، استغربت الخروج بعد العشاء لكننى لم أظهر دهشتى .

صعدت حتى حجرتى ، إنه أول يوم لى فى باريس وعلىّ الذهاب إلى الكلية ثم إلى المحافظة حتى أحصل على الإقامة ، أترانى قادرة على كل ذلك ؟

من يدرى ؟

لقد قالوا إن المترو تحت الأرض وهو شبكة لها دليل سأتعلم إذن كما

تعلم الآخرون . كنت متعبة ولا أدرى لِمَ ، لكننى تحاملت على نفسى وكتبت خطابًا لأمى أحكى لها اليوم بطوله ، كى تطمئن علىّ .

***

كلية العلوم ليست بعيدة عن الدار وصفتها لى إحدى الزميلات .

وأنا أصعد السلم الخارجى للكلية رفعت عينى لأقرأ كلية العلوم وتحتها جامعة باريس وفوقها علم فرنسا رمز الثورة الفرنسية والمطالبة بحقوق الإنسان .

دق قلبى .. دق كأن به دقًا يدق منذرًا بفرح ، هل هى حقيقة أم حلم؟ أعرف شكل وجهى حين تضيئه السعادة ولم أكن بحاجة لمرآة حتى ترانى سعيدة . لكن لِمَ ولم آخذ الشهادة بعد ، تسلحت بقدر من الجدية ودخلت الكلية أبحث عن مكان التسجيل .

طالبتنى الموظفة المسئولة بإحضار معادلة الليسانس المصرى بنظيره الفرنسى وأيضًا شهادة من أستاذ الإحصاء الرياضى بأننى أدرس تحت إشرافه ، لم تكن المسألة صعبة ، وبعد أسبوع كنت مسجلة بكلية العلوم جامعة باريس ، دق قلبى دقة الفرح ، وابتسمت ، لكن الابتسامة لم تدم طويلاً ..

بعد أول محاضرة اكتشفت أن المعادلة ليست إلا حبرًا على ورق وأن الفجوة بين جامعة باريس وجامعة القاهرة عميقة ويجب علىّ أن أعمل كثيرًا إذا كنت مصرة على دخول الامتحان .

***

يوم اصطحبتني زميلة إلى أقرب مطعم من مطاعم الجامعة لتناول الغداء كان عليّ أن أقف في طابور بعد ذلك ، كان عليّ أن أحمل الصينية وأجد لي مكانًا ، كان ذلك بالنسبة لي عملية شاقة ومجهدة إذ كيف أقف في طابور وكيف أحمل الصينية . شعرت أنني أبدو كالمفلسين أو الشحاذين - احمر وجهي وتصبب العرق من جبيني ولم أكمل طعامي - وعدت بالصينية إلى حيث يستقبلون الصواني الفارغة وخرجت وأنا سعيدة بأن هذا الجحيم قد انتهى .

***

بدأت أعي أنني في باريس ولم أعد أخشى الخروج من الدار فصرت أذهب إلى المتاحف والمسارح غالبًا مع بعض الزميلات وتعلمت كيف أذهب إلى المكان الذي أود الذهاب إليه بالمترو .

اشتريت بعض كتب الرياضيات حتى أحسّن من مستواي في هذا العلم ، وبدأت أكسب بعض المال فالأستاذ سألني إن كان عندي منحة .. وحين علم أنني جئت على حسابي الخاص طالبني بإعطاء بعض الدروس في الرياضة الحديثة لمجموعة من الباحثين في علم النفس الاجتماعي والذين يدرسون الإحصاء التطبيقية .

والتجربة كانت ناجحة لأكثر من سبب فتحضير الدرس مكنني في هذا الفرع كما انني تعرفت بإحدى الباحثات وهي من أصل بولندي وقد دعتني أكثر من مرة لتناول القهوة معها وأيضًا زارتني . كانت مبهورة بعلم النفس الاجتماعي وكثيرًا ما تحدثت عنه وانتقل حماسها إليّ .

***

وفى يوم طالبتنى مديرة الدار بإلقاء محاضرة عن المرأة المسلمة . فإن من تقاليد الدار أن تلتقى الطالبات مرة كل شهر وتلقى إحداهن محاضرة عن المرأة فى بلادها . إذن الدور علىّ .

ماذا أقول ؟

ذهبت للمكتب الثقافى علّ أحدهم يعيننى ، لم أجد مراجع فى هذا الشأن قلت أرتجل وياليتنى ما قلتها . بدأت المحاضرة ، قدمت لها المديرة وجاء دورى فى الكلام بحثت عن صوتى فلم أجده ، بحثت فى ذهنى عن كلمات أو حتى كلمة تحية أبدأ بها لم أجد وتكررت مأساة المطعم فشعرت بوجهى يحمر والعرق يتصبب فوق جبينى .

كسرت الصمت المديرة فسألتنى سؤالاً جاوبتها فذهب التلعثم ووجدت نفسى أتحدث وتنفسى يتنظم حتى إننى وددت ألا ينتهى الحديث فلدى الكثير مما يقال .

ساعدنى الاهتمام البادى على وجوه الإيرانيات والتونسيات وصديقتى الجزائرية .

بعد المحاضرة شربنا العصير وتناولنا الحلوى ثم ذهبت كل منا إلى حجرتها فالوقت متأخر ولا أحد يخرج بعد العاشرة .

***

خرجت أكثر من مرة بعد العشاء فى هذا الموسم ، مرة لحضور محاضرة الدكتور «شوشار» أحد أهم أئمة البيولوچية فى حينه وكان عنوانها «الجنس والسيطرة على الذات» . أما العنوان فقد صدمنى لأول وهلة

واستغربت أن تدعونـا المديـرة وهى راهبـة إلى حـضور مثل تلك المحاضرة لكننى حين استـمـعت إلى شـوشار وهو يتـحـدث عن تدريب الذات على السيطرة عليها وعـدم الاستجابة العشوائية للغريزة الجنسـية فهمت لِمَ وهى راهبة اهتمت بدعوتنا إلى مثل تلك المحـاضرة ، الخروجة الثانية التى تركت بصمـة هى الندوة التى نظمتهـا كلية طب باريس للكاتب الجـزائرى «كاتب ياسين» دعتنى إليها ليليًا والزميلات التونسيات ، تحدثوا كثيراً فى تلك الليلة عن مسرحية «المرأة المتوحشـة» لكاتب ياسين وتحدثوا فى أمور كثيرة أخرى يومهـا حسـدت الطلبة الذيـن يرفعون أيـديهم طالبين الكلمة ثم يتكـلمون بطلاقة وما هو أهم أنهم يجدون ما يقولونه .

اكتـشفت أننى لو أعطـونى الكلمة لن أجـد ما أقوله ، قـررت فى هـذا اليوم الذهاب إلى الندوات أينـما وجدت وأيًا كانت مـوضعهـا فالكتب لا تحـتوى على كـل شىء ، ثم إنهـا صـامتـة لا تقـول لا أو نعـم وأنا أقـرأ لا أدرى إن فهمت أم لا ؟ أما النـدوة فهى الحـيـاة بذاتها فيـها الـلا والنـعم أو الربما .

ساعدنى وجود الدار فى قلب الحى اللاتينى ونهم الزميلات إلى التثقيف والاستـزادة فى المعرفـة فسكرت من النشـوة وأنا أشاهـد روائع تشـيكوف وبيكيت وجـوجول وماذا أقـول الصوت ! كيـف تنطق الكلمات فى نغـمة سلسلة جـميلة فـفى «أبناء الجنة» رددت البطلة أكثـر من مرة «نحن نحـيا» وفى كـل مرة كانت الكلمة تزداد قـوة وتأكيداً حتى شعرت برعشة تسرى فى عمودى الفقـرى كأننى اكتشفت أننى أيضًا أحيا .

***

أخذنى كل هذا التثقيف من الدراسة فقررت أن أمكث أكثر من سنة وأن أعمل . وددت اكتشاف باريس فكرًا وعلمًا وثقافة وفنًا ؛ وددت ارتشافها حتى الثمالة فمازلت شابة وأمامى وقت طويل .

***

أشركت مديرة الدار فى رغبتى فى العمل ، نصحتنى بالتحدث فى ذلك الأمر مع أستاذى .

طلبت موعدًا مع الأستاذ قلت له إننى أود التحصيل على نار هادئة ، وأيضًا أود التثقف ، لذلك أرغب فى العمل . لم يفكر طويلاً قبل الرد علىّ . قال إن وزارة التربية تحتاج لمدرسى رياضيات وعلىّ الذهاب إلى أكاديمية باريس فى مبنى السوربون وطلب موعدًا مع مفتش الرياضيات .

***

استقبلنى المفتش مرحبًا ، قال لى إن فى الوزارة ما يسمى بالمدرس المساعد وهى وظيفة لسد الثغرات التى يتركها المدرسين الذين يقومون بإجازة ووعد بتكليفى فور خلو مكان .

***

ذهبت إلى مكتبة سانت چينيفيف - سمعت عنها كثيرًا لكننى لم أكن قد حظيت بالذهاب إليها .طلبوا صورة وتحقيق الشخصية بعد أقل من عشر دقائق كان معى كارنيه للقراءة فى هذه المكتبة ، دلنى الحاجب على قاعة ليست صغيرة ، بها البطاقات المسجل بها اسم الكتب وترقيمها ،

بحثت عن موضـوع الرياضيات كدت أصاب بحالة إغمـاء . فتحت عنوان رياضيـات فروع لم أسـمع عنها قط ولا أعـرف عمـا تتحدث - تـراجعت لحظة عن شجاعتى وجسارتى وأغلقت الدرج .

عدت وفتـحته واخترت كـتابين بدأت قراءة المقدمة فى كل منهـما حتى أعرف فـيما يدور الحديث فى كل من الفرعين ، فى العاشرة مـساء وقت إغـلاق المكتبـة سلمت الكتـابين وخرجت كـهلة . فـاتنى موعـد العشـاء ، تأخرت عن موعد العودة إلى الدار ، أنبتنى المديرة .

***

لم أنم كثيراً .

استيـقظت بعد منتصف الليل بقليل نزلت إلى الدور الأول حـيث قاعة القراءة حتى لا أضىء النور وأوقظ زميلتى ، أخذت مـعى كتاب رياضيات كنت قـد اشـتـريته ولم أفـتحـه بعـد وأخـذت فى قـراءته . هل قـررت التحدى ؟ هل قررت الصمود ؟

ممن أطلب النصيحة ؟ يجب أن أواجـه بنفسى ، تسـاءلت هل أركز فى الامتحـان وأعود ومعـى شهـادة أم أتجـول بـيـن قـاعـات المحاضـرات وبين الكتب وأعــود فى ذهنى فكرة ، ولا أقـول علم عـمـا يدور فى هـذا العصر ، وما ينبت فيه من علوم جـديدة ؟ الاختيار صعب . سلمت بشىء واحد هو جهلى .



فى مكتبة القسم قابلت طالبًا دعانى إلى فنجان قهوة لم أكن أعرف أن فنجان القهوة هذا سيغير حياتى . هو أيضًا من دولة نامية ، تحدثنا كثيراً عن الثورة ، كنت أستمع أكثر مما أتكلم فقد أحسست أنه ليس لدى الكثير لأتحدث عن الثورة ، بطريقة منطقية تجريدية . فى لحظة أدركت أننى أفيق من غفوة فقد قال ضمن ما قال إن الثورة هى تغيير الوضع من حيث هو وضع ولس الخروج منه خروجًا فرديًا . وجدت ضالتى ، نظرت فى ساعتى قلت إن لدى موعدًا استأذنته وتركت المقهى، لم يكن لدى موعد ، كنت أود العودة إلى حجرتى والجلوس مع نفسى أو مع يومياتى أو الكتابة إلى أمى .

إذن هذا هو المفتاح ؛ تغيير الوضع من حيث هو وضع . كيف ؟ ومن الذى سيغير ؟ والثورة على ماذا ؟ وعلى مَنْ ؟

الثورة !

سأضيف هذه الكلمة إلى قائمة الممتلكات الذهنية التى أود أخذها من باريس ؛ هل أطلب الكثير ؟ !

***

جاءنى خطاب من الأكاديمية يرجونى الذهاب إلى ليسيه هوش فى ' رساى لتقديم نفسى إلى المدير .

كم كانت فرحتى بهذا الخطاب . لم أنم ليلة وصلنى - ماذا أقول للمدير ؟ ماذا أرتدى - هل أضع ماكياجًا أم لا ؟ أسئلة كثيرة مرت بذهنى .

فى الصباح اتجهت نحو محطة القطار الذى يذهب من باريس إلى ڤرساى. لم أجد صعوبة فى الوصول إلى الليسيه - شارع واسع جميل به أشجار كستانة وفى آخره القصر الشهير - قصر ڤرساى .

قدمت نفسى للمدير ، طالبنى بالذهاب إلى أحد المكاتب فذهبت أعطونى أوراقًا لأملأها ، وسألونى إن كان لى حساب فى بنك - لما رددت بالنفى ؛ سألونى فتح حساب بأحد البنوك وإعطاءهم الرقم - أعطونى جدولى وقالوا إن علىّ أن أبدأ فى الغد صباحًا . ألقيت بالتحية وخرجت .

***

جوار الدار فرع للكريديه ليونيه ، ذهبت إليه - حسبتهم سيطلبون إيداع مبلغ - قالوا إن هذا ليس شرطًا وأعطونى رقم حساب بالبنك وقالوا ، بعد أن ملأت بعض الأوراق ، إن دفتر الشيكات سيكون جاهزًا بعد بضعة أيام .

تسلمت العمل .

فرحت ..

استمرأت الحديث أمام التلاميذ .

شعرت أننى أحيا ..

إنهم يعملون فترتين . بينهم ساعتان للغداء والراحة .

بعد الغذاء دعتنى إحدى السيدات لشرب القهوة معها فى حجرة المدرسين .

قالت إنها مسئولة النقابة بالليسيه وأعطتنى أوراقًا لأملأها .

***

كل يوم يزداد حماسى ويزداد انبهارى بالنظام السائد والسرعة التى تتم بها الأشياء . فلم يمض أسبوع حتى وصلنى بالبريد كارت التأمين الصحى - وإحدى نشرات النقابة .

ازدادت مع الأيام صلتى بالأستاذة بيرو أستاذ اللغة الفرنسية .

***

لاحظت أنى أتحدث بلكنة واضحة ، سألت مديرة الدار المشورة ، نصحتنى بالتردد كثيراً على المسارح . قالت أيضاً إنه ربما كان أفضل الإقامة فى دار كلها فرنسيات وإنها ستتدبر الأمر .

وقد كان .

***

انتقلت إلى دار لا تبعد كثيراً عن الحى اللاتينى لكنها خارجه فى الحى السابع قرب وزارة الخارجية. حى أنيق به مقاه قليلة وهادئ للغاية كما أن الدار لا تبعد كثيراً عن محطة القطار، القطار الذى يذهب لڤرساى .

انتقلت إلى الدار الجديدة دون حماس فقد تأقلمت حيث كنت وصارت لى صديقات وشىء من التعود على نظام الدار وتقاليدها .

لم يكن النظام الجديد يختلف كثيراً عن النظام القديم إلا فى تقديم

الوجبات - فهنـــا يقدمـن الـغداء أيضـًا لمن تطـلبه ، فقـط عليهـا التنـبيه في الصباح .

***

كل شهر يعـقد اجتماع لمدرسى الفـصل يحضره المدير أو المديرة وأيضًا الأخـصائيـة الاجتـماعـية وتدور المنـاقشـة حول التـلاميـذ واحـدًا واحـدًا ويهتمـون أيضًا ، إذا انخفـض مستوى التـلمـيذ ، بمعرفة إن كان انخـفاضه هذا عـام أو فى مـادة أو اثنتين وعلى ضـوء ذلك يقـترح الحل للمـشـكلة . شعـرت أنهـم جنـود يقودون معـركة فرنـــسا الحضارية والعلمـية وبنائـها وتطويرها .

مرت الأيام وأنا سعيدة بعملى وبحجرتى ، فهنا أنا فى حجرة مستقلة.

تعرفت بإحـدى الطالبات اللاتى أتين من الجنوب وصـارت بينى وبينها صداقة جميلة .

كنا فى المسـاء نتحـاور حـول أشيـاء جادة وأشـيـاء بسيطة مـثل الأزياء والماكياج فقد لاحظت أن المدرسات غالبًا ما يفضلن الألوان المحايدة وقد لا يضعن الماكياج وقد يضعنه بطريقة لا تلحظها العين بسهولة .

***

حان وقت انتهاء مدتى فى ليسيه أوش قبل ، الموعد بأسبوع تقريبًا حضر مدير الليسيـه إحدى الحـصص وأبدى ارتياحه لـطريقتى فى التـدريس أما السيدة بيـرو فقد أعطتنى عنوانهـا وتليفونها وأخذت عنوان وتـليفون الدار كى نظل على اتصال .

لم أمكث طويلاً بلا عمل .

بعد عشـرة أيام جاءنى خطاب تعيينى فى ليسيـه شارل ماتى ، وعلىّ أن أظل به حتى نهاية العام الدراسى .

***

فى يوم زارتنى السيدة بيـرو لم تعجبها الدار ، حـددت لى موعداً لزيارة السيد لوجون مدير إحدى دور المدينة الجامـعية الدولية قالت أيضًا إن السيد لوجون زميل السيد بيرو فى كلية الآداب .

استقبلتنا المديرة بترحاب جم وطلبت خطاب توصية من أستاذى .

بعد أن خرجنا دعـتنى السيدة بيرو إلى الغداء عندها فى البـيت للتعرف إلى زوجهـا وعلى ابنهـا وقالت إنها سـتكتب بعـد الغداء خطابًا لأسـتاذى لأطلب منه التوصية .

حين أرسلت الخطاب إلى المدينة الجامـعية ولـم يصلنى رد منها بـالسـرعة التى توقعتها ظننت أن هناك رفضًا .

***

فى نهاية العام الدراسى دعتنى مارت إلى قريتها .

حين علـمت المديـرة بذلك نصـحـتنى بعـمل جـولة فى الـريف الجنوبى وانتهاز زيارتى فرصة لتلك الرحلة .

بلد مارت قرية صغيرة صغـيرة جداً فى الجنوب الغربى لفرنسا لكن بها حلاق سيدات وسوبر ماركت وخلافه ..

أول يوم دعانى جدها وجدتها على العشاء ؛ لوبيا باللحم البتلو مطهوة على نار هادئة .

قالوا إنهم علموا من خطاب مارت أننى مصرية وبحثوا عن مصر فى القاموس وجدوا به كلامًا كثيرًا عن نهر النيل وعن الأهرامات ، خشيت أن يطول الحديث حتى يصل إلى الكرنك فإننى لم أزره وبالكاد ذهبت إلى الأهرامات مرة واحدة فى حياتى .

فى اليوم الثانى شعرت أنهم يعدون للغداء كأنهم يعدون لحفل ورأيت الجد والجدة قادمين إلى بيت أهل مارت ومعهم زجاجة شمبانيا ، وددت سؤال مارت لكنى فضلت السكوت حتى أفهم وحدى ما يحدث .

إنه فعلاً حفل ٢٥ سنة على زواج أهل مارت .

- أتعرفين لِمَ أتزوجها ؟

لم أفهم .

ضج الجميع بالضحك .

فى حفل القرية راقصتها وودت تقبيلها فكان نصيبى صفعة فقررت الزواج بها . تلك تقاليد الجنوب إذن !!

فى اليوم الثالث ذهبنا إلى الجبل على حدود إسبانيا .

استقبلتنا صاحبة الدار وهى قريبة لهم فرحة أشد الفرح .

البيت بسيط غاية فى البساطة به طاولة حولها أربع دكك ، جلسنا جميعًا حول الطاولة ، كان الوقت عصرًا تصورت أننا سنشرب شايًا أو قهوة مع بعض البسكويت ولا أدرى لِمَ تصورت هذا ، جاءت

السيدة بقنينة نبيذ كبيرة وقطعة جبن حجمها ليس بالبسيط وسكين وخبزة من خبز الريف .

لا طبق ولا كوب ولا شيء من ذلك ، أخذت تحكى أخبار سكان الجبل ، كانت تتكلم وتضحك فى آن واحد ، أضحكتنا معها وانتقل شيء من صحتها النفسية إلى الجميع .

فى اليوم الرابع ذهبنا إلى لورد وهى مدينة صغيرة كانت قرية لا يسمع عنها أحد حتى ظهرت العذراء مريم إلى راعية غنم اسمها برناديت ويقال إن العديد من المرضى الذين ذهبوا إلى لورد شفيوا ، فعدد العصى المعلقة على المغارة ليس بالبسيط .

ذهبنا إلى محاضرة تلقيها امرأة وهبت نفسها للتمريض بعد أن شفيت من سل فى العمود الفقرى .

قالت إن معها صورة الأشعة وهى مريضة وصورتها بعد أن شفيت فى لورد وإن أكثر من طبيب منهم أطباء عقلانيون أقروا أن صورة الأشعة الأخيرة خالية تمامًا من المرض .

كنت أميل إلى تصديقها ، فقد شعرت بما يشعر به المرء فى الأماكن المقدسة . شعور يصعب وصفه ، لكنه نوع من الراحة النفسية أو لنقل الإحساس بالنقاء أو بشيء ما غير عادى .

فى الأيام التالية زرنا بعض المدن المجاورة للقرية وتحدثنا عن الجنوب الغربى وتقاليده وتقاليد الشرق .

سافرت ..

ذهبت أول ما ذهبت إلى بوربوت وهى قرية صغيرة وسط غابة صنوبر أكثر ما أحببته بها هو غروب الشمس بين الأشجار ، يكاد المنظر يفرض على الإنسان الصلاة والتعبد ، شيء رهيب .

أما الفلاحون - إذا جاز التعبير - فهم أسرة من أربعة أفراد ، أدهشنى أنهم يأكلون الخوخ بالشوكة والسكين رغم بساطة المنزل وبساطة ثيابهم وعملهم فلاحين .

لاحظت أيضًا أنهم بعد العشاء يستمعون بعض الوقت إلى محطة «فرنسا الموسيقية» ويصلون جماعة قبل الذهاب إلى الفراش . إنهم يختلفون اختلافًا تامًا عن فلاحة الجبل التى زرتها مع مارت وأهلها فى الأسبوع الماضى ، لم أستمر طويلاً فى التجوال فى الجنوب الغربى ، ذهبت إلى الجنوب الشرقى : الريبيرا ، معى كارت بيت الشباب ذهبت إليه فى چوان لى پان ولم يكن مزدحماً .

قمت بجولة مرة فى نيس . ومرة فى كان ، لكن هذه الريبيرا التى يسيل لها لعاب العالم لم تبهرنى كثيراً ، ركبت القطار حتى مونت كارلو لأرى هذا الكازينو الشهير .

فى الواقع رواد الكازينو أعطونى إحساسًا بأنهم فى تمثيلية عبثية .

بعد جولة فى الكازينو نهاراً ، فليلاً يجب أن أرتدى ثوبًا طويلاً وليس لدى ثوب طويل .

لكن المتعة الحقيقية هى حمام السباحة إن ماءه من ماء البحر وهو قريب

من السهل بين الجبلين . فى الصباح أخذ كتاب الرياضيات وأذهب إلى الحمام ، أغطس به قليلاً وأخرج للشمس ولكتابى وحين أرفع عينى عن الكتاب أرى البحر والجبل .

فى الغداء أطلب طبق «محشى» فهم يجدن صنعه ، قرب نفاذ نقودى ركبت القطار وعدت إلى الدار سعيدة برحلتى ، سعيدة بالتعرف على فرنسا ، (فرنسا الجميلة المتنوعة) .

***

لم تدم سعادتى بالدار طويلاً فالسيدة لوجون أرسلت تقول إن لى مكانًا بالمدينة الجامعية الدولية .

حين علمت الآنسة روسو برغبتى فى الانتقال إلى المدينة الجامعية انزعجت قائلة إن بها شبانًا وحين لم ترن أقاسمها الانزعاج ؛ انزعجت أكثر ، قلت لها إنى أدرس بقسم أغلبه من الرجال ولا تخيفنى كلمة رجل .

احتارت فى الرد وفى النهاية سلمت قائلة : سآتى لزيارتك .

***

المدينة الجامعية الدولية بها أكثر من دار ، بعض الدور فرنسية وبعضها أجنبية وهى كبيرة بها مساحات خضراء واسعة وأشجار جميلة وبها مطاعم جامعية واستاد وملعب تنس وحمامات سباحة ومكتبة وقاعة سينما .

ياه كل ذلك ..

انبهرت .

أكثر ما يبهرنى هى الحديقة ، فالذى نسقها قطعًا عبقرى فى فن الحدائق .

عاد إلىّ شعور بأنى أولد من جديد .

***

جاءنى التعيين هذه السنة فى ليسيه بلزاك ، حين علمت مديرة الدار بالخبر هنأتنى قائلة إنه أحد أكبر ليسيهات باريس .

ذهبت لتقديم نفسى ، رحبت بى مديرة الليسيه ودعتنى إلى اجتماع المدرسين وهو اجتماع سنوى يعقد قبل بدء العام الدراسى . أعطتنى جدولى وتمنت لى حظًا سعيدًا .

كان الليسيه مختلطًا، أى أن به بنين وبنات ، كان أيضًا على مشارف ثلاثة أحياء : حى برجوازى وضاحية عمالية وحى شعبى .

إن المهمة شاقة لكن لا بأس .

كان علىّ التدريس فى عدة فصول بعضها بكالوريا قسم أدبى وهى فصول مريحة ، وبعضها بكالوريا قسم أول ولم يكن أحد هذه الفصول مريحًا قط ، وقد سمعت من إحدى المدرسات أنهم فى السنة الماضية كثيراً ما ضبطوا يلعبون الورق فى حصة الرياضيات .

قلت هذا تحد . لا بأس من هذا الفصل الذى لا يريده أحد .

فى حصتين أو ثلاث اختبرت مستواهم ؛ تحت الصفر بقليل .

احترت ..

المفتش يستقبل يوم الخميس فاستأذنت المديرة فى أن أذهب إليه

للمشورة قلت له إنهم لا ينقصهم الذكاء لكنهم بدون أساس . نصحنى بالتضحية بحصة أو حصتين من الحصص المخصصة لكل فرع فى مراجعة مقررات السنة الماضية قبل الدخول فى المنهج .

كان هذا الفصل هو الجزء الأول من البكالوريا ، فى الجزء الثانى التخصص لم أخف عليهم استعدادى للتعاون معهم بشرط أن يبذلوا هم أيضًا مجهودًا وكان شهر عسل بينى وبينهم لكن سرعان ما سادت الفوضى وعدم التركيز فى الدرس ، طالبت المديرة بتذنيبهم قالت إن القانون يمنع تذنيب فصل بأكمله لكن لا بأس من كتابة تقرير .. وقد كان . قلت المبرر لتذنيب كل واحد منهم - وافقت على التذنيب بشرط ألا أستعين بمراقب وأن أكون أنا المراقب مدة التذنيب .

فكرت فيما أفعل فى هاتين الساعتين ، هل نراجع الرياضيات - هل أتحدث فى السلوك . هل أختبرهم كتابة أم ماذا ؟

فضلت أن يكون حوارًا مفتوحًا بينى وبينهم ، طلب منى أحدهم الكلمة قائلاً :

انسى أن اسمى فلان ، أنا اتحدث كألفا للفصل .

دهشت لقوله ، سكت حتى أبحث عن رد أو تساؤل . طال سكوتى . لاحظت ابتسامات ساخرة خبيثة هنا وهناك ، لم أفهم ، احمر وجهه ثم استطرد فى الكلام ، استمر الحديث بينى وبينهم ساعة ثم اقترحت أن يحل كل منهم مسألة من اختياره وسوف أصححها وأعطى عليها نمرة ولا يهم أن تكون صعبة أو سهلة لكن المهم هو إتقان عرض الحل .

***

أول يوم فى الربيع !

براعم ! ورود ! زقزقة عصافير .. كل يوم كنت أخرج فى الظلام فالليل طويل ونور النهار يتأخر فلا أكاد أشعر بالصباح واليوم حفل .

كيف أذهب إلى العمل كى أسجن فى حصة رياضيات .

تنزهت فى الحديقة ، أكاد أتوقف أمام كل وردة أنظر إلى قطرات الندى المتلألئة فوقها ، أود ارتشافها بعينى والتوقف عندها أطول زمن.

كى تُخلّد بذهنى .

مر وقت بين الأشجار والورود ورائحة النجيل .

أوه ! كأنى أستيقظ من غفوة ..

ماذا عن الليسيه ؟

ركبت المترو ، وصلت فى منتصف فسحة العاشرة ، طلبت مقابلة المديرة حكيت لها ما حدث .

ردت :

أنت جنوبية !

لم أدر إن كانت تسبنى أم تمدحنى .

قالت : الإدارة لا تعرف التغيب إلا لأسباب صحية أو أسباب عائلية أما الربيع ؟!

ابتسمت

استمرت فى الكلام

أنت مدرسة مخلصة

أنت أيضًا صادقة

لا تكرريها حتى لا تسببى للإدارة إحراجًا وسمحت لى بتكملة اليوم فى التدريس . مر اليوم وصورة الورد المعلقة عليه قطرة الندى فى ذهنى، قلت هذا يساوى ؛ حتى الرفت ، ونمت وأنا أفكر فى الوردة .

قالت جدة لأمى [1]

«يا عينى كلى ما تشتهيه ييجى يوم يجيكى الشهد ما تذوقيه» .

***

بعد فترة علمت أن فلانًا أبو تلميذى ألفا الفصل شخصية مهمة فى الحكومة الفرنسية وربما كان عدم انحنائى تقديرًا لهذا الاسم الضخم والإصغاء إلى تلميذى كتلميذ فقط أظهرنى بمظهر قوى أعجب به باقى التلاميذ وأعجب به الألفا ، ففى آخر العام الدراسى وقف ليلقى خطبة وقال إنه تعلم منى الكثير وإنه تمنى أن أكون مدرسته فى العام القادم .

علمت يومها أن أكثر من نصف الفصل اختار الرياضيات تخصصًا فى العام الدراسى المقبل ، كانت الحصة هى الأخيرة فى اليوم الدراسى فدعوتهم إلى المقهى المجاور لليسيه .. تحدثوا كثيرًا وكان فيهم حماس أرغمنى على العودة إلى الليسيه لشكر المديرة على ثقتها بى ، وإرسال بطاقة بنفس المعنى إلى مفتش الرياضيات وقد علمت فيما بعد أنه راضٍ عن شغلى بعد أن اطلع على دفتر اليوميات الخاص بالفصول التى درست بها .

***

(١) مثل شعبى

تعلمت فى هذه السنة أن تدريس الرياضيات عملية إبداعية ، فالنظريات لا تتغير لكن التلاميذ يتغيرون وإشراكهم فى عرض النظرية يتطلب وعى بقدراتهم على الاستيعاب ... هذه المرحلة كل تلميذ قادر على فهم المقرر قد يقف بعضهم أمام مسألة صعبة نسبيًا ، لكن فى المجموع ، فالمقرر فى متناول أيديهم .

أعجبتنى أيضًا طريقة وضع الفرنسيين للمسائل فبعد كل درس عدد لا بأس به من التمارين ، بعد ذلك تأتى المسائل الطويلة التى بها خمسة أو ستة أسئلة ، كل سؤال أكثر تعقيداً من الذى سبقه ، أى الفرصة للطالب المتوسط موجودة وأيضًا فرصة الطالب المتفوق موجودة فهو قد يصل إلى السؤال الأخير .

أعجبنى أيضًا اهتمام الأكاديمية بتنشيط المدرسين تربويًا فكم أُستدعيتُ للمركز التربوى الدولى بمدينة سيڤر لحضور ندوات أو محاضرات فى تدريس الرياضيات وهذه عملية مستمرة فليست مهمة المفتش هى تقييم المدرسين فقط لكن أيضًا الإشراف على توعيتهم المستمرة فيما هو جديد فى التربيــة .

فالتعليم كما فهمت ليس عرض معلومات أمام التلاميذ بل هو تنمية للنسيج الذهنى ، عير تدريس المادة المراد تدريسها .

***

ذهبت إلى قاعة الاستماع بالمبنى الرئيسى وطلبت السيمفونية التاسعة لبتهوڤن ، كنت قد استمتعت بها فى أوبرا القاهرة وقت أن كان ثروت عكاشة وزيراً للثقافة وكانت الموسيقى تحظى باهتمام خاص منه .

استمعت إلى تلك السيمفونية كثيراً وفى كل مرة استمع إليها تزداد علاقتى بها توثقًا وأشعر أننى أحيا لحظات جميلة فى حياتى .

علاقتى هذه شابهت علاقتى بلوحة اليتيمة فى المقابر لدولاكروا وهى إحدى لوحاته الموجودة بمتحف اللوفر ، فكثيراً ما ذهبت إلى اللوفر ، ليس فقط كى أتجول بين الأعمال لكن أيضًا كى أقف أمام هذه اللوحة وأنظر إليها كأننى أراها للمرة الأولى ، أعيد اكتشافها وأوثق علاقتى بها حتى كدت أحفظها كما أحفظ الشعر .

علمتنى هذه اللوحة كما علمتنى السيمفونية التاسعة تصاعد العلاقة بين الفنان والمتلقى ، علمتنى أيضًا أن الصداقة هكذا إن لم تتجدد فى التصاعد فهى كالعمل الفنى المتواضع ، فالعلاقة معه سرعان ما توضع لها نقطة النهاية .

أما وقد تعرفت إلى العديد من الطلاب من الشرق والغرب ، وأيضًا شمالاً وجنوبًا فقد ساعدنى اكتشافى هذا على تصنيف الزملاء والزميلات إلى علاقة مجاملة وعلاقة لا أقل حميمة لكن ربما فيها قدر من العمق أو الاستمرارية .

***

استدعتنى مديرة الدار ، وسألتنى عن مشاريعى فى الإجازة قلت لها إننى سأستعد للامتحان ، لم تتحمس للفكرة - دهشت ، قالت إنى فقدت الكثير من وزنى وإنها ترى أننى مرهقة وتلزمنى إجازة حقيقية ، قالت أيضًا إنها رشحتنى لدى الأخصائية الاجتماعية للذهاب إلى ميجاف كمشرفة على التلاميذ الذين يقضون إجازتهم هناك وأنه فى هذه الحالة سأستفيد من

الجو الجميل وأجدد صحتى وأستعد للعام الدراسى المقبل استعداداً حقيقياً .

فى هذه الحالة يجب أن أقبل فكرة تأجيل الامتحان .

لم أصدق نفسى

هى التى تقول ذلك ؟

إنهم يقولون إنها تهوى إرسال الإنذارات قبل نهاية العام الدراسى مطالبة النزلاء بالنجاح فى الامتحان .

فى الواقع كنت أخشى الرسوب فثقتى بنفسى تحت الصفر .

ذهبت إلى الأخصائية الاجتماعية ، أخذت العنوان ومعه مواعيد القطارات وأين أنزل وأى أتوبيس أركب وفى أى مقهى أنتظر الأخصائية الاجتماعية الخاصة بالدار التى سأذهب إليها .

الدار فوق الجبل فوق السحاب أيضاً ، طالبونى بالراحة وقالوا إنى سأبدأ العمل فى الغد .

ما هو العمل ؟

اصطحاب التلاميذ إلى قمة الجبل يومياً ثم العودة للغداء .

أعطونى كتاباً به صور لأربعين صنف من الزهور وأسمائهم ، قالوا إن هذه الزهور موجودة بالجبل ويجب أن نتعرف عليها بقدر الإمكان .

ماذا أقول ؟

أول الأمر كنت فى الإفطار أحتسى القهوة فقط ، لا أضع اللبن فى القهوة ولا آكل معها خبزاً بالزبد والعسل .

ومع مرور الأيام كان عدد شرائح الخبز التى آكلها يزداد .. زاد وزنى ولم أعد أشعر بالإرهاق من مشوار الصعود إلى أعلى الجبل وعادت إلىّ حيويتى .

صرت شابة أغنى مع التلاميذ وأضحك معهم وأستمتع بالجمال المبهر للزهور والينابيع والأشجار .

كنت قد نسيت الضحك ، ففى العام الدراسى أستيقظ فى الخامسة صباحًا واستعد لركوب أول مترو حتى أصل قبل السابعة والنصف ، فلا يجب أن أصل إلى الدرس وأنا ألهث وأظل أعمل حتى الخامسة مساء وأعود وعلىّ تحضير درس الغد وتصحيح بعض الواجبات أو الاختبارات .

يوم شاق وطويل لا تعرف الابتسامة طريقها إلى فمى إلا وأنا ألقى بتحية أو أردها لكنها ابتسامة آلية سريعة لا تنبع من أعماق صادقة أما هنا فالضحكة نقية لها رنينها الحلو .

بين حين وآخر كنت أفتح الكتب التى أخذتها معى .

لكنى سرعان ما وجدتها مملة وسخيفة وإننى أفضل عليها النظر إلى الزهور المختلفة التى تكسو الجبل .

وهكذا ذهبت الإجازة دون استذكار لكنى تعلمت كثيراً عن الزهور وألوانها وأسمائها .

***

أما هـذه المرة فالتـعيين كان لـليسيـه كلود دى يوسى فى ضـاحيـة سان جارمان ، إن المسافة إليه بعيدة لكن العمل لم يكن شاقًا .

بعد أقل من عـشرة أيام كنت قـد تعودت المشوار .. المترو ثم القطار ثم عشرون دقيقة سيرًا على الأقدام .

***

قرأت إعلانًا عـن أسبوع الفكرة الماركسـية وموضوع السنة : ديمقـراطية التعليم ، ذهبت إلى أكثر الندوات .

تعلمت الكثـير عن ديمقـراطية التـعليم وتكافؤ الفـرص المعطاة للطلاب ويغض النظر عن التفـاصيل ، فقـد عرفت مسـئولة بالنقابة . التـقينا بعـد ذلك وعلمت منهـا أن النقابـة تنظم دورات مـحو أمـيـة لعـمـال شـمـال أفريقيا والبرتغال .

أبديتُ رغبتى في الاشتراك فى هذه الدورات .

أول يوم أجلسونى مع عامل وظيفته جـمع القمامة ، أعلم أنه يعمل من الخامسة صباحًا ، أى أن يومه شاق .

أول يوم كتب السطر فى صـفحة بأكمـلها . لم يتحكم فى كتـابة حرف «a» على خط أفـقى فـجـاء السطر كـهـيكل لجبل ، معـوجًا بشـتى صـور الإعوجاج . بعد أقل من شهر كتب الأبجدية فى سطر مستقيم .

مع الوقت صارت دورات محو الأمية جزءًا من حياتى .

أحببت اليـد المتورمة المليئة بالشقـوق .. يد العامل التى تبدو لمن لا ينظر جيدًا كأنها قذرة ، لكنها فى الواقع يد مجتهدة .

تعلم تلميذى القراءة بعد فترة .

فرحت كأنى نجحت فى امتحان صعب ، شعرت أننى سأنجح فى الآخر فى امتحان الكلية ، قررت التفرغ للاستعداد للامتحان فى الإجازة الصيفية.

***

تعرفت فى ليسيه دى بوسى على أستاذة فلسفة متحمسة لمادتها وكثيراً ما تبادلنا الحوار حول التلميذات أو حصة الرياضيات ، لولاها لأصبح العمل مملاً رتيباً بلا حياة .

أذكر حديثها يوم أعطت واجباً للتلاميذ عن الالتزام وكيف أن تلميذاتها سواء فى القسم العلمى أم الأدبى وجدن صعوبة فى كتابة هذا الموضوع .. قلت ربما ترجع الصعوبة لصغر سنهن .

قالت فى «انترڤيو» لمفتش الفلسفة سأل إن كان الشباب الفرنسى يبدأ دراسة الفلسفة فى سن مبكرة ..

رد قائلاً :

لم أسمع عن أحد بدأ يفكر وهو فى الأربعين .

١٥ مايــــو

فى هذه السنة ٦٧ كانـت الندوة التى نظمها الطلبـة الفلسطينيون بقـاعة الموتوالتـيه أكـبـر قاعـة ندوات بباريس وأذكـر أنه منذ أربع سنوات كـانت الندوة بقاعـة متواضــعة بحى سان جـرمان وكان المنظم هو الطلبـة العرب ، اذكر أيضًا أنها كانت أول مرة أعرف أن ١٥ مايو هو ذكرى تقسيم فلسطين فعلى حد علمى لم تذكر الصحف المصرية ذلك التاريخ بطريقة تجعلنا نحن المصريين نعيد تذكره ونعتبره يوم حزن أو حداد مازال مستمراً .

القاعة كانت مليئة بطريقة ملفتـة للنظر والمتحدثون من كبار الشخصيات اليسـارية الفرنسية وخـتم الندوة الزميل داود تلحمى بـكلمة قصيـرة للغاية لكنها انتزعت التصفيق الحاد .

قال إن شعبنا ، شعب فلسطين ليس مسئولاً كى يدفع من أرضه ومن دمه ما دفعه المسئولون الحقيقيون نقداً .

شعـرت يومهـا أنه بإمكانى حمل السـلاح مع الفلسطينيين وغض النظر عن كل نظرياتى فى الإنسان .

شعـرت أن الإنسان يهـدر وأن الحوار الذهنى عـبث وخيـال ومثـالية لا جدوى منها فلن يرد حق فلسطين إلا السلاح .

***

لقد مزق الصهاينة إنسانيتى ؛ فأنا ضد السلاح .

٩ يونيـــو

لم أعـد أقوى عـلى النظر فى وجـه رجل عربى . كلمـات رئيس اتحـاد الطلبة العرب فى ٤ يونيو ترن فى أذنى كأنها أجراس القيامة .

- إنهم يظنون إنها ستكون ٥٦ أخرى لكـنهم سيجدوا «يتنام» أخـــرى.

ربـــاه

أين الحرس الوطنى هل كان ماكياجًا ؟

أين المصريون ؟

شاب الزملاء وصـاروا كهولاً . انحنت ظهورهم وبانت التجاعـيد كأن تلك الأيام الستة كانت قرنًا من الزمن .

مصر

هل هى مسألة بلا حل ؟

أم الحل صعب ؟!

تراجعت عـن محاولة الانتـحار ، فـالشعب مازال . ولا تعنـيه هزيمة أو حتى عدة هزائم .. المشكلة هى من أين نبدأ . نعم من أين نبدأ ؟

كيف ؟ والمؤامرة واسعة متعددة المحاور والمستويات .

صرت لا أكلم أحـداً ، فراية مصـر منكسة بل راية العرب ، فـقد رأيت

إيلى المارونى الذى كان دائم السب فى عبد الـناصر يدير ظهره لنا فى البيت اللبنانى حيث كنا نستمع إلى صوت العرب ؛ لمسح دموعه .

لست أدرى لِمَ تذكرت امتـحان الرياضيات ، امتـحان فى تمارين بسيطة سهلة ، تكاد تكون فيه الأسئلة مباشرة .

***

فى الإجازة لم يتغير شىء إلا إحسـاس بالقدرة على النجاح . انتصرت على المعادلات الصعبة ودخلت الامتحان ووفقت فى اجتيازه بنجاح .

أعتقد أن المـقابلة مع العامل وقوة إرادته أعطتنى الإحساس بأن مـهمتى فى استذكار المقرر أقل بكثيـر من مهمته فى السيطرة على القلم وأن خوفى ما كان إلا هينًا .

***

طلبت موعدًا مع أستاذى .

شكرته على صبـره علىّ وثقته بى ثم قلت له إن ما درسـته نظرى لكننى لا أعلم شيـئًا عن التطبيقـات وسألته المشـورة . نصحنى بالعـمل فى إحدى وحدات الأبحاث وأعطانى أربعـة عناوين . وفقت فى أولهما وكـان مركز أبحاث تابع لوزارة الصحة الفرنسية .

فكرت بعـد تسلمى العـمل ، يجب أن أكـتفى بهـذا القـدر من الحيـاة الطلابية ، فـقد أصبح لدى الـعديد من الأصدقـاء والصديقات وأصـبحت أعـرف فى أى مقـهى سـأقـابـل مَـنْ ، ولن أشـعـر بالعــزلة إن صـار لى سكنى الخاص .

استأذنت المديرة فى تنفيذ قرارى . رحبت به ونصحتنى بالذهاب إلى الأخصائية الاجتماعية لتجد لى سكنًا بسيطًا معقولاً ، لا يبعد كثيراً عن مكان عملى أو فى الحد الأدنى مواصلاته سهلة .

اخترت حجرة على السطح فى سادس دور بميدان الجمهورية . حجرة صغيرة بها دوش وركن للطبخ .

فرحت

أول مرة أكون مستقلة ، مسئولة ، سأطهو طعامى وسأنظف الحجرة وسأجعلها جميلة وسأشترى زرعًا وسأضع ستارة بها كورنيش .

كأنى أولد من جديد ..

***

مرت أيام رتيبة علىّ ، عملى الجديد سمح لى بالعودة إلى الندوات والمناقشات فى المقاهى والحياة الذهنية التى أحبها فى الوقت ذاته تخلصت من أشياء كثيرة كتب كنت قد قرأتها ولا أعتقد أننى سأقرأها مرة أخرى ، ثياب ذهبت موضتها ، علب الماكياج فقد أصبحت رافضة له ، مكواة الشعر ، فشعرى المجعد أكثر أصالة من شعرى المفرود وأيضًا تخلصت من الأحذية ذات الكعب العالى فهى عملية تعذيب لا داعٍ لها ولا صلة لها بالأناقة .

وتعلمت توفير نقود القراءة فأشترى الكتاب أقرأه جيداً وأعيد قراءته ثم أبيعه بنصف ثمنه لأشترى كتابًا آخر ، هذه الرياضة علمتنى التركيز فى القراءة ، فأنا بعد قليل سأفترق عن الكتاب ، فعلىّ أن آخذ منه كل ما يمكن

أخـذه وتخـزينه فى رأسى ، فـرف المكتبـة صغيـر ويسـع بالكـاد كـتب الرياضيات .

تعلمت أيضًا عدم القراءة للتسلية ، فذاكرتى أشفق عليها من تسجيل ما هو سطحى أو لا لزوم له ، فـمثلمـا تعفـى العين من النظر إلى لوحة رديئـة يعفى الذهن من قـراءة تنقصها الجـدية أو الأناقة . وأن أقرأ بعـقلى لا بعقل الكاتب فالأحداث خاصة العلمى والفكرى منها كثيرة .

قررت العودة إلى دورات محو الأمية .

***

وجلسـت إلى مكتبى المتـواضع كى أكتب خطابًا إلى أمى كعـادتى كلما اكتشفت فكرة جديدة أو شعرت أننى أخطو خطوة إلى الأمام ، قلت لها إن الثروة الحقيقية للإنسان هى الزمن .

مايــــو ١٩٦٨

خرج من ركن الشارع على رأسه خوذة يمسك بإحدى يديه درعًا ، وفى يده الأخرى لاكريموجين - (مسيّلة للدموع) ألقاه واختفى - من ركن آخر حذا حذوه زميل له ، فى لحظة كان الشارع القصير المؤدى إلى بوليار سان جرمان ملىء بالدخان ، فى اللحظة نفسها امتلأت عيناى بالدموع ، ثم انهارت الدموع على وجهى ، وسال أنفى ، لم أدر ماذا أفعل ؟ فتحت حقيبة يدى حتى أتأكد أن بها الإقامة . قبل أن أرفع عينىّ عن الحقيبة سمعت صوتها - تعالوا - ادخلوا .. ادخلوا لحظة ..

كنا ثلاثة : فتاة وطالب وأنا ، لم يكن أمامنا خيار - فالشارع ملىء بالدخان - والدموع تسيل - ولا ندرى ما الذى ينتظرنا فى نهاية الشارع.

دخلنا ...

ستديو بسيط فى الدور الأرضى لكنه - أنيق : أعطتنا مناديل ورق - قدمت لنا القهوة - استرحنا قليلاً ، تعرفنا بعضنا ببعض - هى مانيكان - الفتاة طالبة فلسفة - الفتى طالب طب غير مسيّس ، لكنهما سمعا بثورة الطلبة واحتجاز زملائهم فجاءا إلى الحى اللاتينى للمشاركة ولتبين الحقيقة.

فتحت هى الباب ، وسارت فى الشارع ، رجعت ، قالت اختفوا ،

تفرقنا ، أكـملت طريقى - اجتزت سـان جرمان ، وصلت لسـان ميـشيل ، إنى ذاهبـة إلى ١١٥ لحضـور اجتـماع الطلبـة العرب ، انه اجتـمـاع مـهـم ويجب ألا يفوتنى .

كـان اجتـماع الطلبـة العرب منعـقداً للـرد على بعض الطلبة المصـريين الذين اجتمعوا قبل ذلك بعدّة أيام ، واتفقوا على نشر بيان بجريدة الفيجارو الفرنسية يناشدون فيه عبد الناصر بالاستقالة لفشله فى إدارة شئون البلاد .

احتج عديد من الطلبة المصريين ، ونشـروا بيانًا فى جريدة ليموند مؤداه أن هؤلاء الذين يطالبون عبد الناصر بالتنّحى لا يمثلـــون إلا أنفسهم ، وأن الغالبية تناشد عبد الناصر بالاستـمرار ، أراد الطلبة العرب المشاركة فعقدوا اجتماعًا بمفردهم ، انتهى بالإجماع بإرسال تلغراف لعبد الناصر ، يهاجمون فيه الطلبة المصريين الذين نشروا بيـانهم فى جريدة الفيجارو ، ويعربون عن رغبتهم فى أن يبقى عبد الناصر فى منصبه .

انتهى الاجتماع بتذييل نصّ التلغراف بالإمضاءات .

كان بوليار سان مـيشيل يعج بالشرطة ، إنهم CRS وهو ما يماثل الأمن المركـزى لدينا ، كنت أسكن بميـدان الجمـهـورية فى حجـرة صـغيـرة على السطح ، وكـان يسكن جوارى بعض الزمـلاء العرب ، كانوا أربـعة ، ثلاثة فلسطينيين ، وسـوريًا واحدًا ، وكـانوا يقطنون نفس الشـقة ، قررنا الـعودة سيرًا على الأقدام فالجو جميل كما هى العادة فى الربيع .

اجـتزنا جـسر سـان ميـشيل .. كـان الحـديث يدور حول عـبد الناصـر والوحـدة مع سوريا .. فـجـأة ونحـن على الرصـيف خـرج مـن شـارعين متـوازيـين وعامـوديـين على الرصيـف الـذى كنـا نسيـر عليـه عـــدد

من الـ CRS أحاطـونا وصـرخوا : ظهـوركم للحـائـط وأيديكم فـوق رءوسكم .. كان هناك عدة شباب فرنسيين غيرنا ، أحاطونا جميعًا .

لم نكن نعرف ما الذى ينتظرنا . كنا قد سـمعنا أن الطلبة الأجانب الذين يحتـجزون يرحّلون فوراً إلى بلادهم ، شعـرت ببرودة تشبه الكهـرباء تسرى فى عمـودى الفقارى .. وجف حـلقى ، قال رياض أحد الفلسطـينيين هيا لا تخافى - مهم ألا تخـافى مهما حـدث . استرددت شجاعـتى ووقفت ظهرى للحائط ، ويداى فـوق رأسى أنتظر . بعد وقت لا أعتـقد أنه ليس طويلاً فلم تكن لدىّ الجرأة للنظر فى الساعة - لكننى شـعرت به طويلاً ، جاءت عربة الشـرطة . أدخلونا فـيها جميـعًا ، وسارت بنا العربة حتى حـوش المحافظة .. أنزلونا .. بهـرتنى المجاملة للنسـاء ، فقد أنزلوا الفـتيـات أولاً .. أيديهن فوق رءوسهن . توجه الطابور إلى عربة أخرى بها CRS يحمل مسدسًا .

تحدثنا جميعًا . كان هناك عامل يحتج ، أخرسه الـ CRS بصيحة .. كان هناك أيضًا قس شاب يحتج . استمر الحديث همسًا .

سارت بنا العربة حتى سجن بوجون ، أنزلونا ووضـعونـا فى التخشيبة ، ثم أعادوا الكرّة : «النساء والقُصّر أولاً»، بدءوا التحقيق ..

سألنى المُحـقق إن كنت أشترك مـع الطلبة ، خشـيت إن قلت الحقيـقة أن يعتبـر أنى مسيّسة ويزداد الطـين بلة . كذبت .. قلت له إنى كنت أزور بعض الأصدقاء فى الحى اللاتينى .

سـألنى عن رأيى فى أحـداث الطلبـة . قلت له إنى مـعتـادة على دخـول جامعة القاهرة بالكارنيه ، أبرزه للشرطة كى يسمح لى باجتياز بوابة الجامعة ، ولا يدهشنى وجود الشـرطة بالجامعـة ولا احتجاز بعض الـطلبة فأنا معـتادة

على ذلك ولم أحتجّ في مصر ، فمن باب أولى أن لا أحتج في فرنسا .

نظر إليّ وكأنه يريد الدخول في أعماقي أو أن يضربني ، أخذ الإقامة، أعطاني ورقة تحل محل الإقامة لمدة اسبوع ، طالبني بالذهاب إلى المحافظة بتلك الورقة ، ومعها خطاب ضمان من السفارة ، ثم أفرج عني، كانت الساعة الخامسة صباحًا ، سألت عن زملائي قادوني إلى التخشيبة. وددت انتظار التحقيق معهم والخروج معهم . طالبوني بالعودة إلى بيتي .

كان عند بوابة السجن خمس فتيات ، وكان الـ CRS الذي قادنا حتى البوابة عدوانيًا سليط اللسان ، أهاننا وهو يسير بنا إلى البوابة قال اخرجن أيتها الداعرات ، ردت فتاة قائلة : معذور أنت لم تقرأ أوجست بيبل حتى تعرف أنك أنت الداعر .

همست لها ، اسكتي فإنه لن يفهم .. نود الخروج .

أما الشرطي العادي الذي فتح البوابة كان رءوفًا بنا . قال لنا بحرارة كبيرة عدْن إلى أمهاتكن ، فالحساء الساخن ينتظركن .

فكرت في المستشار الثقافي . ما الذي سيقوله إذا عرف أن الـ CRS نعتني وزميلاتي بداعرات . هل عرضت سمعة البلاد للإهانة ؟

فكرت - أيضًا - أن أعتكف في بيتي حتى أنسى ما حدث ، لكن شيئًا كدقات القلب العنيفة ، التي تسبق الامتحان أو الحب أوالمغامرة كان يدفعني للمشاركة .. الثورة .. مشاركة الثائرين على دخول الشرطة الجامعة . ما لم أفعله في مصر سوف أفعله هنا في باريس قلعة الحرية . ماذا لو استمرت الشرطة في تطويق جامعة باريس ؟

الغل المكبوت يوم دخلت جامعة القاهرة وأبرزت الكارنيه للعسكرى الواقف ، وعلى كتفه السنوكى ، انفجر ، فى هذا اليوم تمنيت أن تشتعل ثورة الطلبة ، وتمنيت أن أشارك فيها .

كانت كلمات الـ CRS ترن فى أذنى ، وكنت أود صفعه لكن الصفعة لن تأتى بثمار إلا بحبسى وترحيلى - وددت أكثر من ذلك ، ووددت كتمان غيظى حتى أفهم أكثر ، وأرد يومًا على عبد الناصر ، كيف ؟ أنت هنا من أجل الدفاع عنه ، احترت فى عبد الناصر وفى نفسى لم أكن أعرف أين نحن بالضبط .

سرنا معًا ـ وصلنا حتى قوس النصر .. دخلنا مقهى ، كنا كالأخوات ، كالصديقات تعرفنا إلى بعضنا - تبادلنا بعض الجُمل . ذهب الخوف ، وبدأت الشجاعة ، كنا نتحدث عن الاستمرار ، أما أنا فكنت أفكر فى مواجهة المستشار الثقافى وطلب الضمان ، وأتساءل ماذا لو رفضه وماذا لو رحلونى ؟

انتظرنا أول مترو، وتفرقنا ، وعدت . ضغط على جرس الباب الخارجى للعمارة فانفتح الباب، دخلت، كان شباك اللوج الذى تقطنه البوابة مضاء ، أزاحت الستار، حين رأتنى فتحت باب اللوج وتقدمت نحوى :

- هل خرجت مبكراً . أم أنك عائدة من سهرة ؟
- لا لم أخرج مبكراً ، لم أعد منذ خرجت بالأمس .
- كيف ؟ ليست هذه عادتك .
- كنت فى السجن .
- هل كنت بالحى اللاتينى ؟!
- نعم .

إن حفيدى يود الاشتراك مع زميليه فى الليسيه ، ولست أدرى هل أشجعه حتى لا يشذ عنهم . أم ماذا ؟ تعالى اشربى قهوة فإنى أعد القهوة لابنى ، إنه يأخذ أول مترو .

دخلت - كانت أول مرة أدخل اللوج - أحسست بدفء ، كنت فعلاً فى حاجة إليه ، ألم يقل الشرطى : اذهبوا للماما ، اشربوا حساء ساخنًا .

وددت البكاء على صدرها ، فكرت فى أمى ، هل هى راضية عنى ؟ ومالى ومال السياسة ، عدت أتأملها وهى تتساءل بماذا تنصح حفيدها .

شكرتها - وذهبت إلى حجرتى - حجرة صغيرة فى السادس ، يصلون إليها من سلم الخدم ، لم أسترح فى منتصف الطريق كما كنت أفعل فى العادة ، ولم أتعب ، طلعت السلم فى نفس واحد ، جلست أمام الشباك أنظر إلى السماء وضوء النهار يحبو ويضىء الحجرة .

كنت خائفة من عبد الناصر ، ماذا لو رفضت السفارة إعطائى ورقة الضمان . ورحلونى ؟

ماذا ستقول أمى ؟

نمت وأنا أحلم بالثورة ، اسيقظت فى اليوم التالى - قالوا لى إن مظاهرة كبيرة قامت وإنه كان فى صفوفها الأولى أساتذة مرموقون ، منهم فائزون بجوائز نوبل ومنهم جوليون وأسماء كبيرة حزنت أنها فاتتنى .. وذهبت فى المغرب إلى الحى اللاتينى علىّ أسمع شيئًا .

فى الصباح ذهبت إلى السفارة ، أعطانى المستشار الثقافى خطاب الضمان بعد أن أنبنى وذكرنى أنى لست رجلاً حتى أدس أنفى فى

تلك الأمور ، كان وجودى مع الطلبة العرب من أجل الدفاع عن عبد الناصر هو الذى ترافع عنى أمام المستشار الثقافى .

أخذت الورقة وجريت إلى المحافظة . دهشت أنهم لم يردوا لى الإقامة، بل أعطونى ورقة أخرى هى إقامة لمدة أسبوع آخر .

وماذا بعد الأسبوع ؟

تصارعت فى داخلى مشاعر عدة . إننى طالبة علم ، وأود مواصلة تعليمى لكننى جئت إلى باريس كى أفكر ، أتعلم كيف أفكر ، فالذى تعلمته فى القاهرة هو حل بعض المعادلات وبعض الحلول لبعض المسائل - لكن منذ ٥٦ ومشكلتى أصبحت مصر - مصر المعادلة الصعبة .. مصر الطموح ، بلا إمكانية بشرية ، فنظرة عابرة سريعة على المقررات فى مصر ، والمقررات المناظرة فى جامعة مثل باريس التى ذهب إليها بعض الزملاء فى ليسيه القاهرة بعد البكالوريا تجعلنى لا أثق بها وأرى المستقبل كالسراب .

على أى الأحوال فقد قررت الاشتراك فى أحداث الطلبة إذا استمرت الأحداث بجامعة باريس ، كانت فى نظرى هى قلعة للحرية من ناحية ، وكانت بداخلى صرخة مكتومة منذ دخلت جامعة القاهرة ، صرخة دفاعًا عن الحرية ، صرخة فى وجه قهر الرأى وقهر عقل الشباب وكل من يود التفكير بعيدًا عن القالب المفروض عليه من السلطة .

احترت فى مشاعرى نحو عبد الناصر ، هل هو الرجل الذى أود أن أصرخ فى وجهه : « علمتنا الذل والجبن» .. أم هو القائد الذى يجعلنى أرتعد فرحًا به حين يخطب ويحثنا على المضى بمصر إلى الأمام وجعلنى أنا وزملائى طلاب الفيزياء والرياضيات نرى أملاً فى المستقبل حين أنشأ

مؤسسة الطاقة الذرية ، ونادى بأن يكون فى مصر تقدم علمى حين .. أطلق شعار «لقد فاتنا عصر البخار وعصر الكهرباء ولن يفوتنا عصر الذرة» .

أفقت من أحلامى على الباب ، ثلاثة فرنسيين ، زميلة وخطيبها وصديق لهما . جاءوا لدعوتى .

وددت الرفض . لكن الإغراء كان قويًا ، وأود الوجود حيثما وجدت الأحداث ، احترت فيما أجيب ، فى النهاية قلت سأبقى معكم لكن حتى ١١١ ، النادى المصرى ، فمن الأفضل أن أكون مع مواطنى بعدما حدث لى .

ذهبت معهم لا عساكر ، ولا CRS ولا شىء ، لقد انسحبوا حتى نهاية التفاوض .

وصلت إلى ١١١ كان بعض الطلبة المصريين موجودين ، وكان هناك أيضًا بعض المبعوثين من الحاصلين على الدكتوراه والذين جاءوا فى منح دراسية لتحديث معلوماتهم ، كان الحديث دائرًا حول أحداث الطلبة تارة، وحول أحوال مصر تارة أخرى .

حضر أحدهم ، ينهج قائلاً : الطلبة بيخلعوا بلاط الشارع ، ويعملوا سدود فى الشوارع حول الجامعة .

خرجنا شلة ، اتجهنا إلى أقرب شارع يقوم فيه الطلبة بمثل ذلك العمل ، سألنا قالوا : إنهم سيقومون بعمل حوالى ٧٠ سدًا من الحجر بعد اقتلاعه من الشارع وذلك فى الشوارع الجانبية التى تحيط بالجامعة ، ذهبنا إلى بيت

زميل يقطن أحد هذه الشوارع للفرجة . كان الطلبة يعملون كالآتى : واحد يقتلع البلاط ، ويعطيه لآخر فيعطيه لآخر حتى يصل إلى مكان السد ، ثم يرصون خلف السد بعض السيارات .

وقفنا للفرجة فى شرفة الزميل وزوجته اللذين استقبلانا مرحبين فى البداية ، لكن بعد أول هجمة للـ CRS فى حوالى الواحدة صباحًا ، بدآ يضجران بنا ، فهما لا يستطيعان طردنا ولا هما عادا مرحبين بنا .

هجمت الشرطة

كان أهل الحى قد أعطوا الطلبة الأكل وبعض الماء .

قنابل غاز .

أخذ الدخان يتصاعد حتى الطابق الخامس حيث كنا ثم أخذت العربات فى الاشتعال وأخذ الطلبة فى الصياح : ماء ، رشوا ماء ، اندفع سكان الحى إلى شرفاتهم يرشون الماء حيثما اتفق ، وأخذت بعض السيدات فى الإلقاء بقطع القماش كى يستخدمها الطلبة كمامات .

بعد وقت بدءوا فى الانسحاب صارخين :

Le quarter Latin est a nous

سلموا آخر سد فى الخامسة صباحًا .

علمت فيما بعد أن هدفهم كان الصمود حتى الفجر لإثبات أن هذا الحى ملكهم ولا يملك أحد – ولا حتى الحكومة – طردهم منه .

فى الخامسة كان النهار قد بدأ ، وبدا الشارع كالخرابة : سدود وعربات محروقة وآثار معركة .

خرجت أنا وزملائى أثناء تغيير الوردية وحمداً لله أنه لم يقبض علينا فالشرطة كانت مشغولة عنا .

عدت إلى حجرتى سيراً على الأقدام رغم أنها كانت بعيدة فقد رأيت أن المشى قد يشفينى من آثار الدخان الذى استنشقته طوال الليل .

سألتنى البوابة أين كنت ؟

قالت لى إنهم يرتبون لمظاهرة كبيرة للغد وإنها محتارة هلى تشجع حفيدها للاشتراك مع زملائه ، كى لا يقل رجولة عنهم - أم تنهاه عن الاشتراك حتى لا يصيبه أذى ؟ فقد سمعت أن بعض القنابل التى ألقيت كانت حارقة - وأن بعض الغازات كانت سامة .

احترت فيما أجيبها .

احتسيت القهوة معها ، سألتها أن تنبئنى بميعاد المظاهرة ، التى ستبدأ من ميدان الجمهورية حيث تقطن .

قالت لى : أنت فتاة جيدة .

تركتها ، وذهبت لحجرتى كى أنام قليلاً .

أنبأنى حفيد البوابة بموعد المظاهرة وهو يعطينى البوسطة .

فى الموعد نزلت ، قابلتنى البوابة قالت لى إنها قررت أن يشترك حفيدها فى المظاهرة حتى لا يقل نخوة عن زملائه .

ذهبت إلى ميدان الجمهورية كان كما يقول المثل «ترش الملح ما ينزلش» : أطباء وصيادلة ، وعمال ومعلمون وطلبة ، مئات كثيرة من الشعب ، احترت أين أقف ومع مَنْ ؟

بدأت المظاهرة ، كان الشارع مملوءاً ، ومن هم ليسوا فى المظاهرة كانوا على الرصيف . أنبئونا أن بالشارع مليونًا ونصف المليون من البشر، وصلنا بعيدًا فى الطرف الآخر من باريس .

مرة أخرى «ترش الملح ما يقفش» ، جموع كثيرة من الشباب وقد قرب النهار من نهايته .

أمرونا بالاتجاه نحو السوربون - اتجهنا إليها - وفوجئنا بأن الطلبة بدءوا فى احتلال مبنى الجامعة العتيدة ، دخلت مع من دخلوا مدرجًا متوسطًا ، أصدرت فيه تعليمات باحتلال جميع المدرجات وتعليق يافطة على باب المدرج المحتل بهوية اللجنة التى تحتله ، كما أنبئونا بضرورة استمرار احتلال المدرج ٢٤ ساعة . كان عددنا يتزايد .

فى الصباح كانت السوربون تموج بالجماهير .. لا فرق بين أجنبى وفرنسى . أوربيين من جنسيات عدة وأفارقة وعرب وأمريكان الجنوب .

وجدت تلميذًا فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة واقفًا أمام مدرج خال ، سألنى إن كان يمكنه احتلال المدرج من أجل مناقشة قضايا المدارس الثانوية - قلت له إنى عملت بالتدريس ثلاث سنوات ويمكننى الاشتراك معه ، تشجعنا وكتبنا لافتة تقول إن هذا المدرج الخاص باللجنة الثورية لليسيهات ، وجلسنا ، لم تمض ساعتان إلا والمدرج ملىء بالأساتذة وبالطلبة ، وبدأت المناقشات حادة جادة غاية فى الجدية حول مناهج التاريخ حيث احتج البعض على إبراز نابليون على أنه شخصية فذة بينما هو فى الواقع ديكتاتور واستعمارى .. تساءل بعضهم عن ثورة كوبا ولِمَ تدرج فى مقرر التاريخ .

بعد قليل شعرت أنى غير معنية بالمناقشة ، فخرجت أبحث عن مدرج آخر فى موضوع آخر ، كان هناك مدرج قضايا المرأة ، تساءلت إن كانوا سيسمعون أوجست - بيل أم يناقشون مسائل أخرى .. وذهبت أبحث مرة أخرى عن مدرج ، وجدت ضالتى فى مدرج ديكارت - أكبر مدرجات السوربون ، كانوا يناقشون فيه مفهوم الثورة ، وكانت المناقشة حادة عنيفة ، لكنها أيضًا عميقة بين فصائل اليسار من ماركسيين وبين الفوضويين وأيضًا المعتدلين من الاشتراكيين .

كانت الجنسيات عديدة والاتجاهات عديدة وألوان الوجوه جاءت من شتى أقطار العالم ، بين الحين والحين كان يجىء طالب أو طالبة ، يطالبون ٣ أو ٤ متطوعين ، لم أكن أعرف لماذا ، لكننى بعد أن أعادوا الكرة مرات ، رفعت يدى مع المتطوعين وذهبت معهم ،كان الهدف الذهاب إلى المصانع لحث العمال على الإضراب ، كان حظى مع مجموعة ذاهبة إلى عمال المطابع فى ضاحية من ضواحى شمال باريس .. استقبلتنا مندوبة النقابة ، وبختنا ، كادت تطردنا قائلة : مانحن إلا طلبة عالة على المجتمع لا ندفع إيجار شقة ولا كهرباء ولا غاز ، وإن النقابة غير راضية عن هذا التخريب .. لم نناقشها كثيراً وخرجنا نوزع منشورات الجامعة على شباب العمال ، الشباب فقط .

فى اليوم التالى ذهبنا إلى مصنع آخر فى ضاحية أخرى ، وجدنا العلم الأحمر . فوق المصنع والعمال مقيمين بالداخل والباب مغلقًا وعليه حراسة .. طالبت المدير - حين أتى بعربته الفخمة - بالعودة من حيث أتى .

اطمأننا أن الحزب الشيوعى الذى كان يرفض حركة الطلبة مع الحركة وأن كل شىء على ما يرام .

عدنا إلى الجامعة .

فى محاولة للبحث عن مدرج آخر وجدت مدرج العالم الثالث . تعرفت إلى اثنين من المشرفين عليه كانا من الطلبة العرب ، دخلت أستمع إلى المناقشات الدائرة حول الاستعمار وحول نقد حركة الطلبة التى أخذت على عاتقها تعرية الوجه الرأسمالى للغرب ولم تنتقد وجهه الاستعمارى ، وقلنا إن هذه مهمتنا نحن .

ناقشنا ضمن ما ناقشنا موقف العمال العرب والعمال البرتغال فى فرنسا وطبع منشور ؛ صفحة بالفرنسية لشرح وضع العمال الأجانب فى فرنسا وفى ظهرها صفحة بالعربية أو البرتغالية .. نشرح للعمال المعنيين فى لغتهم وضعهم كعمال مقهورين يتقاضون رواتب قليلة ولا يتمتعون بحقوق عدة من التى يتمتع بها العامل الفرنسى .

كنت ضمن الطلبة الذين وقع عليهم الاختيار لتوزيع هذا المنشور ، وكان علىّ أن أذهب فى الصباح الباكر إلى مصنع عربات ستروين .

كان الوقت ليلاً ، وكنت قد سمعت أن المناقشات حادة فى مسرح الأوديون «الكوميدى فرنسيز» أخذت المنشورات وذهبت إلى المسرح الذى لم يكن يبعد كثيراً عن السوربون ، هناك كانت المناقشات حادة حول المسرح الشعبى والمسرح البورجوازى .. على باب المسرح قابلنى رجل قال إنه قادم بعربته من مارسيليا وسألنى إن كانت الثورة قد اندلعت ! لم أستطع منع نفسى من الابتسام ، أية ثورة ؟ إنها مجرد مناقشات ،

قال إن محطات البنزين أغلقت وإن هناك عشرة ملايين مضرب ، لم أبال ، دخلت المسرح أتخذ لنفسى مكانًا فى أحد الألواج .

قبيل الفجر بقليل ، فتحت عينى على فتاة تضع على ذراعها علامة الصليب الأحمر تقول لى : هل أنت أحسن ؟

- هل أغمى علىّ ؟ هل غافلنى النوم ؟

كل ما فعلته هو أنى سألتها عن الساعة حتى أذهب إلى المصنع لتوزيع المنشورات .

أدركت أن فى كل مكان يحتله الطلبة وحدات إسعاف ، فالكل مرهق لا ينام جيدًا ولا يأكل جيدًا ، وقد يدركه التعب فى أية لحظة .

عدت إلى الجامعة صباحًا بعد توزيع المنشورات ، كان مدرج العالم الثالث به محاضرة يلقيها أحد الأساتذة الفرنسيين المختصين بتنمية العالم الثالث ، وجدت بين الحاضرين بعض الطلبة المصريين اليساريين وعديدًا من طلبة شمال أفريقيا وأفريقيا السوداء .

كانت المناقشة غير حادة حتى وقف طالب من كينيا .. شديد اللهجة.. يقول للأستاذ الفرنسى إن الغرب يصدر الثوار المزيفين الذين يبحثون عن السلطة وليس الثورة الشعبية ، والذين حين يستقرون فى منصب يكتفون بمكتب من خشب جيد وموديل شيك .. أما الثورة الحقيقية فلن تجىء يومًا - من تلامذة الغرب بل ستخرج من الأحراش ، إن كان مقدرًا لها أن تخرج . فى الليل ، فى ذات اليوم جاء سارتر لمدرج ديكارت - أو مدرج الثورة ، قابله الحاضرون بالصفير وبالاحتجاج على موقفه المائع وعلى تأخر وصوله

إلى هذا المدرج ، امتص الرجل العاصفة ، وبدأ يتحدث بعد أن هدأ الجو ، لم يضف كثيراً ولا جديداً على ما قدمه الشباب من آراء ومفاهيم - سئمت الجلسة وحديثه وخرجت ، لم آكل شيئًا ، واحتسيت بعض القهوة .

كان الطلبة فى المقهى يتحدثون بقوة وحماس - لا أحد يعرف أحداً لكن للكل قضية واحدة : المستقبل ، مستقبل الثقافة والعلم وأشياء كثيرة .

علمت منهم أن هناك فى كلية العلوم مناقشات دائرة حول تحديث العلم وإدخال العلوم الجديدة مثل علوم الحاسب إلى الجامعة ، ومناقشات أخرى عن جدوى الرسائل التى لا تهدف إلى تطوير الصناعة والتى تنتهى على أرفف المكتبات ولا يقترب منها أحد بعد مناقشتها .

كنت قد بدأت رسالة عن الإحصاء الطبى ، وقد اخترت هذا الموضوع بعد عملى مدة سنة كباحثة فى وزارة الصحة الفرنسية .. سألت نفسى بعد أن ذهبت إلى كلية العلوم يومًا .. ما جدوى الرسالة ؟ فهى - حتى - إن طُبقت ، فلن تستفيد منها مصر فى شىء .

بهرتنى العلوم الحديثة التى كانت موضوع النقاش فى أحد المدرجات فقررت الاكتفاء بهذا القدر من الإحصاء ، ودراسة أحد تلك العلوم الحديثة ، ومن ثم عدم التقيد بالحصول على دكتوراه . عدت إلى حجرتى مكتفية بهذا القدر من الجولات فى المدرجات والاستماع إلى المناقشات والاشتراك فيها .. وددت الاختلاء بنفسى والتفكير فى بلدى وفى مستقبلى وربما التفكير فى العودة .

بعد أن قضيت بضعة أيام أفكر ، استقر رأيى على دراسة علوم الحاسب ، وأيضًا الالتحاق بكلية الآداب ، فقد اكتشفت أنى مازلت غير

مثقفة وينقصنى كثيراً حتى أستطيع التفكير بطريقة واعية ، غير معتمدة على الارتجال والحدس .

بعد بضعة أيام استقررت واستردت نشاطى وحيويتى ، فقررت القيام بزيارة إلى الجامعة ، كان الإضراب مازال مستمراً ، فذهبت سيراً على الأقدام قبل أن أدخل الجامعة ، أتى الـ CRS وسدوا الشوارع الجانبية التى تحيط بالجامعة فكرت ماذا أفعل ؟ لا أستطيع الخروج من الحى اللاتينى دون إبراز بطاقتى ، وقد يكون فى ذلك مغامرة ولا أستطيع دخول الجامعة فقد يقبض على كل مَنْ فيها .

كان بالشارع الذى كنت أسير فيه مطعم صينى ، قلت أدخله ، لكن ربما استمر الحال هكذا حتى يغلق المطعم أبوابه ، ماذا بعد ؟

كان هناك أوتيل من تلك التى يسكنها الطلبة طوال العام الدراسى ملاصقًا للمطعم ، فدخلت ، سألت الحارسة عن حجرة - كانت طالبة يوغسلافية ، ترددت لحظة وسألتنى كم يومًا ؟ قلت يومًا واحداً . قالت : الشرطة !

- قلت دون تردد : بكم ؟

أعطتنى حجرة فى سادس دور.

لم أنم تلك الليلة من الدخان ، فرغم أنى أغلقت النافذة وأسدلت الستائر إلا أن الدخان كان يملأ الحجرة ، الرعب أيضًا . فلم أكن أعرف كم من الوقت سيأخذه سقوط السوربون فى يد الشرطة ، فى النهاية نمت .

قبل أن تسلم الطالبة اليوغسلافية النوباجية فى الليل عملها - طلبتنى

فى التليفون قالت : لقد ذهبوا ، نزلت ، ألقيت عليها التحية والشكر ، وعدت إلى حجرتى فالثورة بالنسبة لى لم تنته بعد ، بل قد بدأت .

ذهب عنى الذوبان فى حياتى الباريسية والثورة على التخلف واحتل مكانه الثورة على الغرب ولم يعد همى «أنا» بل أدركت ما كان مبهمًا فى ذهنى ، ٦٧ بعد النكسة وهو أننا لن نستطيع الخروج مما نحن فيه بصفوة تخرجت فى باريس أو هارفارد ، بل بالـ ٧٥٪ من الذين لا يقرءون ولا يكتبون .. كما يقول الطالب الكينى إن الثورة ستخرج من الأحراش .

سألنى أحدهم :

- ألم تخشى القبض عليك والترحيل ؟

قلت :

- ربما لكننى أخذت من فرنسا فى تلك الأسابيع القليلة ما لم أكن أحلم بأخذه .

و ...

رحلة إلى الجنوب

كـوتونــو

خرجت من المعهد فى أحد أيام يوليو مثقلة بالإرهاق والقلق واليأس فقررت أن أعطى نفسى أسبوعين إجازة .

مرّ يوم ، ويوم آخر ، ثم وجدتنى أعانى الفراغ ، زاد اهتمامى بشئون البيت : نظامه ، ترتيبه ، نظافته .. لكن كيف ؟ العمر الافتراضى للبياض ولبلاط الأرض قد انتهى ، وبات ملحًا إعادة البياض وتغيير البلاط ، ناهيك عن التنجيد واستبدال الستائر التى بدأ لونها يزول ... ويبدو عليها الجرب .

لم أنتبه لكل ذلك وأنا أجرى وراء الحياة اليومية ، يوم يجر يومًا - ولا أفكر فى أى منهما إلا كقطعة زمنية يجب علىّ أن أقضيها ، ويجب أن تمر بين العمل والأكل والنوم والتفكير فى أيام أفضل .

مع مرور الوقت باتت الأيام الأفضل وهمًا ، فكل يوم يمر يأتى بقسوة تضاف إلى قسوة الذى سبقه .. النقود تقل والدواء يغلو والعيش يصعب واليأس يتسرب إلى الحياة .. يمحو تدريجيًا الحماس والحلم .

قبل أن تنتهى الإجازة جاءنى تليفون : قبلتنى وزارة التعليم فى بنين كمدرسة إحصاء بمعهد الاقتصاد القومى هناك ، وذلك ردًا على طلب كنت قد تقدمت به قبل عامين .

بدأت إجراءات السفر متثاقلة الخطى ، لكن سرعان ما دبَّ فىّ النشاط

متضافراً مع الخوف من المجهول ، أغمضت عينىَّ عن الخوف .. وقعت العقد وحزمت حقائبى وسافرت .

أكاد أجزم بأننى ركبت الطائرة كأننى تحت تنويم مغناطيسى . لم أفكر لحظة فى كيف سأسافر ، وكيف سأصل ، وكيف سأعيش ، وكيف، تركت بيتى وعملى وحياتى الرتيبة المملة لكنها آمنة ، وسافرت .

ركبت الطائرة المليئة بالأفارقة وقلبى يدق : فرحًا .. خوفًا ؟ لا أدرى . عاد إلى عينىَّ بريقهما فابتسمت أمام مرآة الطائرة .

أفريقيا !

يالها من تجربة !

نزلت فى مطار لاجوس أبحث عن الطائرة التى ستنقلنى إلى كوتونو، قالوا : إنها ستتأخر ثلاثة أيام . لم أصدق . الفيزا لـ ٤٨ ساعة فقط ، ماذا أفعل ؟! ذهبت لمكتب شركة مصر للطيران ، قادنى أحد الموظفين - نيچيرى - إلى صالة الترانزيت .. أوصلنى وحقائبى وذهب . جلست أنتظر عودته . قال لى أحدهم إن الطائرة تأخرت وإنها ستقلع فى منتصف الليل ، قلت أنتظر وما عسانى فاعلة غير الانتظار .

مرت ساعة .. مرت ساعة أخرى ، ابتسم ضابط الأمن ، أشار إلى رجل أبيض يحمل حقيبة : قال الضابط النيچيرى : لكِ زميل . إنه ينتظر طائرة كوتونو ، شعرت ببعض الأمل ، تساءلت : لِمَ شعرت ببعض الطمأنينة ؟ ألأن الرجل أبيض .. لأنه غريب مثلى ؟ أم لأن مجىء الطائرة أصبح أملاً وليس حلمًا ؟

تحدثت إليه قليلاً: هولندى ، رجل أعمال، فى منتصف الليل قالوا :

ليست هناك طائرة ، بدأ الرجل يرتبك .. ليست لديه تأشيرة . لا يستطيع الخروج من المطار . قال إنه متعب ويود النوم ، سأل عن فيزا . أنا معى فيزا ، لكن السفير حذرنى من المبيت فى لاجوس ؛ لذا أخذت طائرة الأربعاء .. ما العمل ؟ ما العمل والفيزا لمدة ٤٨ ساعة فقط ؟ يقال إن «إير أفريقية» ليست لها طائرة لكوتونو ... قبل ٣ أيام . لا أعرف أحدًا فى هذا البلد ، ومعى نقود محدودة ... يعلم الله كيف دبرتها !

جاء رجل الأمن قائلاً للهولندى إن الفيزا ستكلفه مائة دولار ، أعطاه مائة الدولار وجواز سفره ، وظل جالسًا أمامى ينتظر ، بدأ قلبى يخفق من الخوف ، فرغم عدم معرفتى بالهولندى إلا أن وجوده جالسًا أمامى ينتظر الطائرة نفسها كان يشعرنى بقدر من الطمأنينة - فهناك أحد يقتسم مصيرى - وكنت أتمنى أن يظل جالسًا هكذا حتى يجدوا لنا حلاً نحن الاثنين .. لكنه قال إنه بحاجة إلى النوم إنه سيغير طريقه إلى أكرا .

حضر رجل الأمن ومعه الفيزا .. أعطاه الهولندى بعض النقود .. ودّعنى .. أخذ حقيبته وذهب .. ظللت وحقائبى . قررت انتظار الصباح حيث أنا فلا جدوى من التفكير الآن . غلبنى النوم . لم أعد وحدى بصالة الترانزيت ، كان عديد من الأفارقة قد جاءوا لقضاء الليل .

فى السادسة بدأ بعضهم صلاة الفجر ، استيقظت ، كان لون السماء أزرق قاتمًا . أول فجر فى أفريقيا .. لا بأس . اغتسلت وسويت هندامى، ذهبت إلى الكافيتريا ، بدا لى الطعام لذيذًا رغم أنه كان عاديًا تفاءلت .. سوف يكون يومًا جميلاً .

فى السابعة ذهبت إلى مكتب شركة مصر للطيران .. حجرة صغيرة ضيقة .. بها ثلاثة مكاتب ، استقبلنى الموظف النيجيرى الذى قادنى بالأمس إلى صالة الترانزيت قائلاً : أمازلت هنا ؟! قلت : نعم .

ردّ : ليست هناك مشكلة ، سأبحث لك عن طائرة وعاد إلى عمله .

سألت عن المدير قالوا لم يحضر بعد ، ذهبت إلى صالة الترانزيت وعدت بحقائبى ، نظروا إلىّ بدهشة فى مقر الشركة . لم أبالِ ، أدخلت حقائبى فى الحجرة التى تسع - بالكاد - المكاتب الثلاثة وجلست على الكرسى الوحيد المتاح .

جاءت موظفة بيضاء ، علمت فيما بعد أنها من أصل روسى تقيم فى لاجوس . سألتنى عما أنتظر .. شرحت لها الموقف . كنت بالأمس ، سمعت رجل الأمن المسئول عن صالة الترانزيت يقول للهولندى : إنه يمكن أن يوصله بسيارته حتى حدود بنين . قمت أدرس الخريطة المعلقة على الحائط . ساعة بالطائرة يمكن أن تكون ٣ أو ٤ ساعات بالسيارة . سألت الفتاة عن سيارة قالت إنها يمكن أن توصلنى حتى كوتونو بعد أن تنتهى من عملها بالشركة ، لكنها ترى أن حقائبى كثيرة وأن ذلك قد يسبب مشكلة على الحدود .

أخيراً وصل المدير - وهو نيجيرى - شرحت له الموقف وقلت له إن الفتاة إذا أوصلتنى فسوف آخذ بالى منها ، سكت ، ثم قال : اتركينى أفكر ، وذهب لعمله . كانت طائرة شركة مصر قد عادت من أبيدچان وسوف تقلع عائدة إلى مصر بعد قليل - كان النهار قد انتصف وأنا لا أعرف مصيرى بعد .

عاد الرجل ليقول لى إنه سيتولى توصيلى بنفسه لكنه بحاجة إلى ١٥٠ دولاراً أدفعها قبل الرحيل وأن السفر سيكون فى الثالثة بعد الظهر - لم يكن أمامى خيار . أعطيته النقود وذهبت لتناول الغداء بدعوة من شركة مصر للطيران .

فى الرابعة تقريباً غادرنا المطار فى « «چيب» .. المدير والسائق وأحد موظفى الشركة ، وهو أيضاً نيچيرى . حين خرجت العربة من لاجوس بدأت أرى الخضرة والأشجار وأسواق أفريقيا وزرقة السماء . رغم الموقف وجدت نفسى أبتسم وشيئاً من الفرحة يخفق فى قلبى : صحة يا أفريقيا !

بدأ الخوف يتلاشى رغم أننى لم أكن أعرف إلى أين هم ذاهبون بى ، أحببت الطبيعة المحيطة بالطريق . ظللت أنظر بلا كلل إلى تلك الطبيعة التى طالما سمعت عنها أو شاهدتها على الشاشة ، والتى بدت لى فى هذا اليوم ملك يدى .. بل ملك عينى .

نظرة ... زرقة

بعد ٣ ساعات وصلنا إلى الحدود، لم أصدق نفسى ، إذن لم يخدعونى، المشكلة الآن فى «فيزا» ينين فى مصر قالوا لى إنى سآخذها فى مطار كوتونو، وإن موظف السفارة سيكون فى انتظارى ، والآن : لا مطار ولا موظف ، ما العمل؟ تركت مدير الشركة يتصرف ، رأيته يدفع كثيراً من النقود .. فى كل خطوة يدفع . مع كل موظف يدفع .

أخيراً دخلنا ينين .

قال لى موظف الحدود : خذى الفيزا عند وصولك . لم تكن كوتونو

تبعد كثيراً عن الحدود . وصلنا عند الغروب .

بقى أن نبحث عن السفارة ، إنها فى طريق المطار . هذا كل ما أعرفه ، فلا رقم ولا اسم شارع ولا حى . سألنا . ظللنا نسأل حتى وصلنا ، استقبلنى حارس السفارة مبتهجًا ، فيبدو أنهم بدءوا يقلقون علىّ حين لم تصل الطائرة وعلموا ان الرحلة أُلغيت .

أنزلت حقائبى . شكرت مدير الشركة أردت إعطاءه ٥٠ دولاراً إضافية رفض .. حيانى . حيونى جميعًا وذهبوا عائدين إلى نيجيريا .

قبل أن أُدخل حقائبى جاءت سيارة بها شاب تحدث إليه الحارس فنزل يحينى : إنه الملحق الدبلوماسى ، أخذنى وأخذ الحقائب واتجه إلى أوتيل قريب من السفارة .

لا أصدق نفسى – حقيقة وصلت ؟ حقيقة سأنام على سرير وآخذ دشًا وأبدل ثيابى ؟

أوصلنى الملحق وقال إنه سيعود بعد ساعة ، كنت قد ارتديت لهذه الرحلة أغلى ثيابى وأحلاها ، حتى أبدو فى منظر معقول .. لكن بعد كل ما حدث تهدل الثوب . فكرت فى إرساله للغسيل فقد أفهمنى الملحق فى الطريق أننى سأقابل الوزير .

قبل أن أفعل أى شىء طلبت إدارة اللوكاندة لأطلب غسيل الثوب . بعد ذلك بدت الأمور سهلة . فتحت إحدى الحقائب ، أخرجت اللازم ، اللازم فقط ، أخذت دشًا واستعددت لموعد الملحق ، الذى دعانى فى هذا اليوم إلى العشاء .

بادرنى بقـوله : «إن تلـك هى العـادة . لا تصل طائرة «إير أفـريقـة» ويحتاس . البعض يلجئون لسفارة مـصر فى نيچيريا ، والبعـض يتصرف . لكن الطريق الأسلم هو طريق أبيدچان ، المشكلـة أنه أغلى . أضاف قائلاً : واحد فقط وصل لاجوس على طائرة «إير أفريقة» لكنه وصل دون حقائبه .

تسـاءلت لِمَ لا يعطوننا التـذاكـر عن طريق أبيـدچان خـاصـة فى أول رحلة ؟ . فى تلك الليلة نمت .. نمـت من التعب - قـمت فرحـة متفـائلة - شجاعة . سأستريح «الويك إند» حتى أقابل الوزير ، وأنا فى أحسن أحوالى غداً الجمعة وسوف تتصل السفارة لأخذ الموعد .

فى يوم الجمعـة حضر الملحق الإدارى لاصطحابى إلى السـفارة ، طلبوا منى بعض الأوراق وطلبوا جواز السفر من أجل فيزا ينين ، ومن أجل الإقامة سألونى إن كنت أود سلفة عن مرتب أول الشهر وإن كان معى نقود تكفينى شهراً ، كان ذلك شيئًا جميلاً وسرنى استقبال هؤلاء الشباب لى .

فى حوالى الثالـثة اصطحبنى محاسب السـفارة إلى البنك ثم اصطحبنى إلـى السـوق حيث استبدلنـا بعـض الـدولارات . قـال لـى : إن سـعر السوق أفـضل بكثيـر من سعـر البنك . دعانى على الغـداء .. أوصلنى إلى اللوكاندة وتركنى .

اتصلت بالقاهرة ، طمأنت العـائلة على وصولى إلى ينين . لست أدرى حتى الآن لم تصـورت أنهم عـلى علم بالمخـاطر التى كـان محتـمـلاً أن أواجهـهـا ... ودهشت أنـهم أخـذوا وصـولى ببساطـة كأنـه أمـر هـين أو حتمـى .

أخذت فى التجوال فى حديقة اللوكاندة .. غابة جوز هند - أشجار موز .. بعض الأشجار المزهرة .. ألوان زاهية - لوحة رائعة بهرت عينى ! شيء جميل أراح صدرى . طلبت الأكل فى حجرتى ونمت مبكرًا .

قابلت فى البنك طبيبًا مصريًا نصحنى بتغيير اللوكاندة ، والذهاب إلى لوكاندة أخرى أرخص وأعطانى اسم اللوكاندة . اخترت أن يكون هذا التغيير بعد مقابلة الوزير .

يوم السبت جاءونى بثوبى ، ثوب الرسميات مغسولاً ومكويًا ... فى أحسن أحواله ، أدركت بعد أن درست الجو أن أغلب الثياب التى أحضرتها معى لا لزوم لها ولن أرتديها لأنها لا تناسب المناخ ، فيبدو أن هذا الحر الشديد هو شتاؤهم أم أن الحر الحقيقى قادم ومعه الرطوبة بعد بضعة أشهر !

رتبت أفكارى ، أخرجت الكتب - منذ حوالى ٢٠ عامًا كنت فى الجزائر ، كنت أدرس هذا المنهج . وتوقفت عن التدريس لأتفرغ للأبحاث طوال هذه السنين ، اشتريت من القاهرة بعض الكتب الحديثة فى نظرية الاحتمالات وفى الإحصاء .. وحرصت أن يكون ضمنها بعض الكتب التى تتضمن تمارين . علمت أنه بقى شهر على بدء الدراسة لكننى لم أكن أعلم شيئًا عن السنة الدراسية أو عن المقرر إلى آخر هذه التفاصيل التى تساعدنى على عمل برنامج لتحضير الدروس . قلت لا بأس من القراءة فالوقت طويل وأنا وحدى وعلىّ التغلب على الشعور بالصمت .

يوم الاثنين أبلغونى أنه علىّ المرور على السفارة فسوف أرافق السفير فى زيارته إلى وزير التعليم فى العاشرة صباحًا .

حرصت أن أبدو فى أحسن أحوالى ، فأنا مصرية . بدت مصر فى تلك اللحظة عزيزة علىّ قريبة من قلبى ، تساءلت لماذا لا أشعر بهذا الإحساس كل يوم وأنا فى مصر ، فكل يوم فى مصر معركة وكل يوم حب كبير وكل يوم محسوب علينا كواجب قومى .

لم يكن مبنى الوزارة أنيقًا أو جميلاً أو حديثًا ، ذكرنى بمبانى مصلحة الدومين ، فى أرياف الدقهلية ، مبانٍ قديمة ، طرازها من قرن مضى .. متواضعة الحجم ، مبعثرة ، تضمها حديقة جرداء ، إلا من بعض أشجار المانجو ، يحيط بها سور متوسط العلو .

توقفت عربة السفير أمام المبنى الرئيسى الذى لا يختلف عن المبانى الأخرى فى شىء إلا فى وجود حرس به ، فى الدور الثانى استقبلونا ، أدخلونا فى صالون متواضع غاية فى التواضع .

حضر الوزير ثم اثنان من معاونيه . علمت فيما بعد أن أحدهما مستشاره العلمى والآخر مدير مكتبه . قدمت له أبحاثى قال إنه قرأ الورق الخاص بى ويسره أن أكون بينهم ، قال المستشار العلمى إننى سأدرس بمعهد الاقتصاد القومى ، وقال مدير مكتب الوزير إنه سيقوم بتدبير سكن لى فى أقرب فرصة . أوصلنى السفير إلى اللوكاندة وأوصانى ألا أبدد نقودى .

جلست وحدى أفكر فى الوزير .. أكاد أجزم بأننى لم أر إنسانًا ذا منصب بهذا التواضع وبهذه البساطة ، وأيضًا بهذه الصراحة وهذا الوضوح ... فى عرض مشاكل العلم ومشاكل التَعليم فى وطنه .

ازداد حماسى ، لم أعد فقط المصرية التى يجب أن تشرف بلدها بل

بتُ أيضًا الإنسان الذى يجب أن يسهم - مهما تضاءل حجم إنجازه - في بناء وطن . هذا الوزير الذى سميته بينى وبين نفسى الوزير الجميل : جميل فى حبه لبلده ... جميل فى تحمل مسئولية شعب فقير .. لكنه شعب ذو إرادة باختيار الثقافة محوراً أساسيًا لنموه الإنسانى والحضارى .

بدأت أدرك - رغم مضى أربعة أيام فقط - لم يسمون هذا البلد «الحى اللاتينى الأفريقى» .

بدأت أيضًا أستعد لمقابلة مدير المعهد وربما أساتذة آخرين كما وعدنى المستشار العلمى للوزير .

تركت التفكير فى الوزير وفى وزارته جانبًا حتى أعد نقودى - أحاسب اللوكاندة وأنتقل إلى تلك التى أشار علىّ بها الزميل الطبيب . ذهبت أولاً وحدى دون حقائبى ودون الاستعانة بالسفارة .رأيت الحجرة .. ضيقة ، مظلمة نظافتها مشكوك فيها . لكن لا بأس فالنقود - السلفة - يجب أن تكفينى شهرين وثمن الليلة هنا ربع ثمن الليلة فى اللوكاندة التى أقيم بها .

مررت بالسفارة ، قلت للملحق إننى نويت تغيير سكنى لكن ليس معى جواز سفرى فقد أخذوه للإقامة ، اصطحبنى ، حاسبت اللوكاندة ثلاثة أيام . مرتبى فى شهر وأنا فى مصر . فى الطريق ظننت أنى أبالغ حين قلت للملحق إن علىّ تحضير الدروس وإننى لن أرى من الحجرة إلا المكتب والكتاب الذى أقرؤه أو الورقة التى أكتب عليها ، فيما بعد اكتشفت أننى قلت الحقيقة ، فبعد مقابلتى لمدير المعهد والأساتذة ،

وبعد علمى بالمقرر كانت الورقة والكتاب هما كل ما أراه وأنا أمضى الساعات وحدى بتلك الحجرة التى إذا أشبهت بها شيئًا فهى تشبه الزنزانة ، لم تكن الحياة سهلة فى تلك اللوكاندة ، فالرواد كثيرون ومن كل نوع وصنف ، بعض الأوروبيين ... كثير من الأفارقة .. بعض العرب .. أغلبهم رجال .. النساء قليلات ... أغلبهن مرافقات لرجال ، بعضهن زوجات والبعض الآخر مجرد مرافقات .

كان بالدور الأرضى ڤراندة فسيحة لكنها للأسف تطل على مقابر كوتونو فتلك المقابر كانت المنظر الوحيد المتاح إذا تخطت عينى الطريق لتبحث عن شىء يشدها .

أغلب الأيام كنت أكتفى بقطعة الخبز بالزبد التى أتناولها فى الصباح ومثلها فى الليل . حمداً لله لم أمكث طويلاً فى تلك اللوكاندة فسرعان ما أرسل المدير سكرتيره ليأخذنى بسيارة المعهد إلى سكنى الجديد يااللمفاجأة .. حى جميل .. ڤيللا .. حديقة .. حجرة فسيحة بها حمام خاص .. لم أصدق نفسى .. جلست على السرير أبكى . «حلم ولاّ علم» . إنى فى مصر لا أنعم بهذا الفراش .

طرق الباب رجل قال إنه الطاهى . سأل إن كنت سأتناول الغداء - جاء شاب سألنى إن كان عندى ثياب للكى ، ماذا ؟ سألت عن أجر الحجرة قالوا إنها تتبع الجامعة ، سألت عن الأكل قالوا ٣٠٠ دولار فى الشهر . كنت جائعة فقبلت . قلت لنفرض إنه أجرة الحجرة .

أغلقت الباب . وضعت كل الثياب المحتمل ارتداؤها فى كوتونو فى الدولاب . ما لن أرتديه وضعته فى الحقيبة الكبيرة أغلقتها وركنتها .

وضعت مفرشًا على السرير وبعض المفارش التى تصحبنى دائمًا هنا وهناك .

بدا الوقت طويلاً لكن موعد الغداء حان . طرق الشاب الباب ليخبرنى بذلك ، ماذا ؟ رجل ؟ نزيل آخر ؟ اقتربت من المائدة . هب واقفًا .. قدم نفسه .. أستاذ اقتصاد مسئول عن تطوير أفريقيا علميًا وتكنولوچيًا ، مقيم فى كينيا .. أصله من النيچر ، قدمت نفسى وجلست قبالته . كان الطعام مطهواً جيداً وكان أيضًا وافراً . تحدثنا عن أفريقيا ومستقبلها العلمى واصلنا الحديث أيامًا ، هى الأيام التى أقامها بدار الضيافة ، حدثته عن لجنة الدفاع عن الثقافة القومية ، أدركت وأنا أتحدث إليه قيمة هذه اللجنة وأهمية الهدف الذى أخذت على عاتقها تحقيقه . أدركت أيضًا كم هو مهم الالتفات إلى العلم كمحور أساسى للثقافة القومية فى مصر .

فى الحديث مع الرجل بدت أفريقيا مكبلة بالقيود وبالعجز ، لكن بالإنسان ؛ بالقدرات الكامنة فيه ، ليس هناك مستحيل .

سافر الرجل وبقيت وحدى بالدار ، ڤيللا كبيرة بها عدة أجنحة وصالة كبيرة هى صالون وسفرة فى ذات الوقت ، كنت أخشى الليل ، أغلق الباب الخارجى جيداً عند الغروب وأطمئن أن الحارس الليلى موجود .

بدأت الدراسة ... خشيت أول درس .. لكن بعض الأمور مرت على ما يرام .

خرجت من حجرتى ذات صباح فوجدت بعض الآسيويين فى الصالون .. ألقيت عليهم التحية وقفوا ... قدموا أنفسهم .. المستشار

الثقافى الصينى .. أستاذ بيولوچيا بجامعة شنجهاى ، سائق السفارة ، سألتهم إن كانوا يريدون شايًا أو قهوة ، أجابوا بالنفى . أعددت لنفسى قهوة الصباح وعدت إلى حجرتى .

فى المغرب تقابلت والأستاذ الصينى فى الصالون ، إنه سيقيم بالدار فى الطابق الأعلى وذلك لحين تدبير شقة له فى مساكن الجامعة . قال إن هذه أول مرة يترك فيها شنجهاى ويبتعد فيها عن أهله وعن زوجته وعن ابنه . كان صوته ينطق بالحب كلما نطق بكلمة الصين .

فيما بعد تقابلنا كثيراً فى الصالون . كان يعد طعامه بنفسه وكان حتى ينضج الطعام يجلس فى الصالون . وفى هذا الوقت غالبًا ما كنت أحتسى قهوة العصر ، فكنا نتبادل الحديث . حدثنى كثيراً عن بناء الصين وبناء الإنسان وأتى إلىّ من السفارة بعديد من المجلات الخاصة بالصين ، وقد أكدت لى المقالات الخاصة ببناء الصين علميًا وتكنولوچيًا ما قاله الأستاذ النيچيرى عن أهمية تطوير أفريقيا علميًا وتكنولوچيًا .

بعد أسبوعين أصبحنا ثلاثة ، جاء أستاذ فرنسى .. كان يقاسمنى الطعام . فى يوم على العشاء أنبأنى الأستاذ الفرنسى أن زلزالاً حدث فى القاهرة ، رغم حرارة الجو ، شعرت بالبرد يسرى فى جسدى ... ما العمل ؟

كان ابن الحارس الليلى الذى يقطن الخرابة المجاورة لدار الضيافة والذى يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا يستذكر دروسه على السلم ، فعشّته ليس بها كهرباء ويعيشون فيها على لمبة جاز . إنه كان يجد فى لمبة السلم المؤدى إلى الحديقة ضوءاً مريحًا يعينه على الاستذكار ، رغم معاناته من

الناموس المنتشر فى تلك المنطقة ، كنا نعانى منه جميعًا رغم التكييف ، ورغم رش الحجرة ، ورغم كل المحاولات .

لست أدرى لم فى هذا اليوم بالذات أدركت أن الفتى يعانى من الناموس. وعدت نفسى بدعوته فى الليالى القادمة للاستذكار بالداخل فى حجرة الطعام ، وذلك بعد استئذان الصينى والفرنسى، فالطاهى والسفرجى يذهبان بعد العشاء ، والمسئول عن دار الضيافة لا يأتى إلا مرة كل أسبوع لأخذ تكاليف الأكل والاطمئنان أن كل شىء على ما يرام .

طلبت إلى الصينى مرافقتى حتى كابينة التليفون ، كانت أول مرة أخرج فى الليل . ليست هناك إضاءة والحفر كثيرة وبعض الباعة يعرضون بضاعتهم على ضوء لمبة جاز حتى يتعرف المارة عليهم وعلى بضاعتهم .

وصلنا إلى الكابينة . وضعت الكارت فى التليفون ، كونت الرقم وأصغيت : تسجيل يقول : المكالمة غير ممكنة . أعدت الرقم مرة ومرات والنتيجة هى هى .. رجعت إلى الدار ، كان الفرنسى فى انتظارى .

سألنى عن أخبار البلد ، قلت المكالمة غير ممكنة ، أضفت إن ذلك لا يدهشنى فهناك خمسة ملايين مصرى بالغربة . استأذن الفرنسى وذهب لغرفته . ظل الصينى معى بعض الوقت . عقب على قولى قائلاً : كيف يعيش هذا العدد من المصريين بالخارج ؟ من الذى يبنى مصر إذن ؟ تطرق الحديث عن الأزمة الاقتصادية .. قال إن مرتبه فى الصين مائة

دولار فى الشهر لكنه يكتفى بها ... أضاف إنه فى بينين مرتبه لا يتخطى ما يكفى أكله ومواصلاته فقط ، لذا فهو يطهو طعامه بنفسه . سألنى أن أفعل مثله وأوفر بذلك بعض النقود لبلدى .

فى الصباح كان حظى أفضل فقد استطعت الاتصال بالقاهرة والاطمئنان على العائلة . فى الليل حضر بعض المصريين لزيارتى ، رجال فى الغربة : مدرس عربى ، مدرس شريعة ، أطباء ممارسون . تلك هى الجالية المصرية بكوتونو، كان أحدهم وهو طبيب قد دعانى إلى العشاء يومًا ، وكان بعضهم مدعواً معى . كان الحزن مخيمًا على الوليمة رغم إصرارهم على الضحك والتنكيت ، بعد العشاء لعبوا الورق فهمت أن تسليتهم حين يكونون جماعة هى أخبار مصر ولعب الورق ، وحين يتفرقون فالتسلية المتاحة هى الڤيديو والتليفزيون .

تحدثوا يوم زيارتهم لى عن مصر ، صارت مصر وهى فى خطر غالية عزيزة .. قلت مرة أخرى لماذا اليوم وليس كل يوم ؟ فكل يوم زلزال وكل يوم خطر ... وددت فى تلك اللحظة أن أمحو المسافة وأبيت فى بيتى . تساءلت هل شُرخ ..هل هُدم ؟ إن بيت أحد الزملاء قد شُرخ . اثنتا عشرة سنة فى غربة بُنى فيها هذا البيت الذى شرخ فى لحظة .

خرجوا تاركين إياى للوحشة والحنين ، عدت أعمل وأحضر الدروس وأفكر فى الصين .

قررت طهو طعامى بنفسى وبذلك أوفر مائتى دولار . لم يمكث الفرنسى طويلاً ولم تظل حجرته خالية طويلاً .

جاءت شابة ألمانية متخصصة فى الصوتيات ، كما جاء أستاذ طب فرنسى وأيضًا أستاذة مناخ فرنسية ، لم تعد هناك حجرة خالية بالدار .

كثيراً ما دعانى أستاذ الطب الفرنسى لتناول القهوة معه بعد الغداء، كان يتحدث كثيراً عن أفريقيا ومأساة أفريقيا وانتشار الملاريا وضحاياها الأربعة الملايين فى السنة . أما الأستاذة الفرنسية فكثيراً ما كانت تسافر إلى الشمال للعمل هناك ، وكثيراً ما كان يزورها تلاميذها من طلبة الدراسات العليا فى علم المناخ . أحيانًا فى العصر كانت تأخذ كرسيًا وتجلس بالحديقة المحيطة بدار الضيافة تدخن سيجارة .

لست أدرى لماذا أثارت إعجابى ، أهى صلابتها ، أهو إخلاصها الواضح لعملها ولطلابها الأفارقة ... أهو تواضعها وهندامها البسيط ... أم ماذا ؟

حين تحدثنا كان الحديث فى العلم وتطوره سريع الإيقاع . حدثتنى أيضًا عن تطور علم المناخ وإدخال الإحصاء والحاسوب فى الدراسات الخاصة بهذا العلم ، سألتنى معاونة طلابها عن طريق معهد الاقتصاد فهم يحتاجون إلى الإحصاء والحاسوب لكن كيف ؟ ليست لديهم برامج حاسوبية ! ، البرامج فى القاهرة - فى باريس أيضًا . لكننى فكرت فى القاهرة ، لم لا أرسل فى طلبها ؟ لكن الوقت ! ، استقر عزمى على السفر لإحضار البرامج وعمل شىء من أجل الطلبة . ظننت تلك الفكرة خاطراً لكننى وجدت نفسى أسعى إلى تحقيقها .

عدت إلى مصر ، بمعاونة معهد الإحصاء وبمعاونة وزارة الخارجية المصرية رجعت إلى كوتونو ومعى خمسون شريطًا حاسوبيًا لاستخدام

الإحصاء ، كانت الرحلة شاقة - لكنى عدت وقد أنجزت شيئًا .

كانت السيدة قد سافرت .. لكن أحد طلبتها ظل يتردد علىّ للتزود بمعلومات فى الإحصاء . كان الطبيب قد أنهى مهمته وعاد إلى فرنسا .. أما الألمانية فقد ذهبت إلى الشمال .. الصينى أيضًا رحل ؛ استقر فى إحدى شقق الجامعة لكنه عاد مرارًا لزيارتى - غالبًا يوم السبت عصرًا ، كان دائمًا يأتى ومعه بعض المجلات ، ويسألنى عن رأيى فى إنجازات الصين وعن أحوال مصر . أعادت إلىّ قراءتى لتلك المجلات وحواراتى مع هذا الرجل بعض الثقة التى كنت بدأت افتقادها . وبدأت من جديد أرى فى بناء المستقبل هدفًا يبدو بعيدًا لكنه ليس وهمًا . لكن كيف ؟ لم يكن الحوار ممكنًا مع رجال الجالية المصرية فقد انكمشت أهدافهم فى سكن أو مصاريف مدرسة .. وعبثًا كان الحديث إليهم عن هدف جماعى وحل جذرى لمشاكل الوطن .

أصر مدير المعهد على إقامة حفل لتسليم البرامج يحضره السفير وقد كان ، صوّر التليفزيون الحفل ، سجلته الإذاعة وكتبت عنه الصحف . وكم كنت فرحة حين تعرفت إلى عاملة التليفون وموظف البنك ، المهم هو الطلبة الذين أتوا إلىّ فى اليوم التالى ليشكرونى وليهنئونى على مبادرتى .

بدأت أشعر أننى فى بيتى أو أننى فى بلدى وبدأ الإحساس بالغربة يتلاشى ، بدأت أتنزه فى الشوارع وأنظر إلى الأشجار الجميلة وبدأت أستمتع بلون السماء والزرقة المبهرة . بدأت أيضًا صداقة جميلة بينى وبين زوجة الحارس الليلى .. سيدة شابة ليست أم الفتى ، فأم الفتى

منفصلة منذ زمن عن الحارس ومتزوجة من آخر تقطن معه عشة أخرى لا تبعد كثيراً عن دار الضيافة . لفترة طويلة ملأت هذه الصداقة حياتى فى دار الضيافة . وبدأت أهمية نزلاء الدار من أساتذة أجانب تتضاءل بالنسبة لى .

كانت «بيتو» تسكن عشة فى الخرابة المجاورة للبيت . كانت تحرص على نظافة تلك العشة ، وكانت ترعى بعض الأشجار التى أنبتها المطر فى الخرابة المحيطة بالعشة كما كانت هناك بعض الدجاجات ترمح وتجىء فى الحوش .. تأكل من الأرض . لست أدرى ماذا كانت تأكل لكن الأرض كانت مصدر طعامها الوحيد ..

شجعتنى صداقة بيتو على الاقتراب من بائعة السجائر التى تتخذ من ركن الشارع مقراً لها ، فهى تجىء يوميًا قبل الفجر بساعة ونصف الساعة ومعها ثلاث فتيات فى حوالى العاشرة من عمرهن يجررن عربة بها بعض الكراتين التى تحتوى على البضاعة ، ثم يفرغن البضاعة على الأرفف ثم مع الفجر يبدأن عملية البيع .

قبل الغروب يبدأن فى رصّ البضاعة فى الكراتين وعلى المغرب يذهبن مع الباعة إلى دارهن . كانت البضاعة : سجائر ... وأرزاً ... وسردينًا .. وسكراً وشايًا ... وصابونًا ... وما إلى ذلك من احتياجات المستهلك .

كانت تلك البائعة تعد من أثرياء البائعات فالآخريات لديهن القليل جداً من المعروضات . يفترشن دكة أمامها طاولة عليها البضاعة .

مع الوقت أصبح لى بينهن عدة صداقات .. كنت أذهب إليهن وقت الفراغ أجالسهن وأتجاذب معهن أطراف الحديث .

كانت بيتو تأتي لزيارتي ليلاً وتشركني في حلمها باقتناء تليفزيون ، لكنها كانت دائمًا تبدأ حديثها بقولها : كيف وليس عندى كهرباء .

لم يعد الدرس بعد ذلك مجرد حصة ، مجرد نظرية أقوم بإثباتها أمام الطلاب ، أو مسألة أطرحها وأنتظر أن يشركوني في حلها . بدأ الدرس كأن الحياة قد دبت فيه . بدأت أراهم ، أتعرف إليهم ، أحبهم ، أشجعهم ، بدءوا يزورونني في دار الضيافة ، في البداية كانوا يسألونني عن حلول لبعض المسائل .. بعد فترة توطدت الصداقة وصاروا يتحدثون عن المستقبل ، عن البحث العلمي ، عن إمكانية مواصلتهم للدراسة لكن كيف والبلد فقير ؟ سألوني عن الدراسات العليا في مصر ، سألوني عن منح دراسية . احترت في الإجابة فالجامعة الوحيدة المتاحة للأفارقة جامعة سنجور بالإسكندرية وهي جامعة فرنسية ليس لمصر دخل بها .. أما الجامعات المصرية فلا تعمل حسابًا للأفارقة . ووزارة الخارجية بدورها تسمح بإرسال الخبراء لكن لا تعطي منحًا دراسية علمية كانت أم تكنولوجية . فقط تعطي بعض الجهات منحًا .. لغة عربية أو شريعة . احترت بم أجيب . وماذا أفعل ؟

استمررت في استقبالهم والحديث إليهم عن دروسهم وبعض النظريات الحديثة التي لم تدخل بعد في مقرراتهم . اعتادوا الحضور إلى دار الضيافة واعتدت وجودهم معي حتى إنني خشيت اقتراب الامتحان وانتهاء السنة الدراسية وسفرهم إلى بلادهم أو إلى قراهم والابتعاد عني .

أفريقيا ..

العلم ..

التكنولوچيا ..

أصبحت تلك هى الفكرة المتسلطة على ذهنى ، كيف تخرج ؟

وهل يمكننا الخروج ؟ .. بدت لى المشكلة صعبة .. لكن هل هناك مشكلة دون حل ؟ وكيف لنا فى الحل ، ونحن ننتظر أن يعطى لنا على صينية من ذهب ولا نبحث عنه نحن ؟ قطع علىّ تأملاتى أستاذ من توجو لجأ إلى بنين بعد أحداث بلده ، كان قد درس فى موسكو علوم الحاسوب ، قال إنه من المفيد تدريب طلبته على استخدام بعض البرامج التى أرسلها معهد الإحصاء .. أتى ليتعرف إلىّ وليتجاذب معى أطراف الحديث .

كان الحديث إليه متعة ، كان شجيًا مثمراً ، قال لى إنه كتب عدة مقالات عن مستقبل الحاسوبية فى غرب أفريقيا وإنه أسهم فى تأسيس أول مركز حساب علمى فى «لومى» عاصمة «توجو» قال أيضًا إنه يأمل فى أن تستقر الأمور فى بلده حتى يواصل أبحاثه وطموحاته العلمية ، كان يأسف على كل تلك الاضطرابات التى تعرقل مسيرة أى إنجاز فى الدول النامية وتعرقل النماء الذى يجب أن تكون له الأولوية على أى خلاف حزبى .. عرقى أو قبلى .

سألنى إن كان يمكنه الحضور إلى مصر . حدثته عن مؤتمر الإحصاء السنوى فى جامعة القاهرة ، أعطيته العنوان ونصحته بالتقدم ببعض أبحاثه .

فكرة المؤتمر شجعتنى على دعوة مدير المعهد إلى القاهرة ، شجع السفير الفكرة ... وافق المعهد فى القاهرة ووافقت وزارة الخارجية .

بدت القاهرة مهمة . بدوت سعيدة فى لحظة ورغم تجديد العقد وقبل أن أعيد التفكير قررت العودة .

أفريقيا الصامتة ..

أفريقيا الفقيرة ..

أفريقيا المأساة ..

والعالم يأتى للفرجة ..

لم أحب أفريقيا كما أحببتها لحظة قرارى بالسفر ، ماذا أفعل هنا ؟ ما الذى أضيفه .. بضعة دولارات تنمو فى حسابى ؟ الثورة ! باتت تلك الكلمة ترن فى أذنى كالجنون ، الثورة ! لكن الثورة على مَنْ ؟ والثورة على ماذا ؟

هل تغيير حكم يكفى ؟ هل طرد الغرب يكفى ؟ ما الذى يجب تدميره حتى نخرج من هذا المأزق ؟ الفقر أم الجهل ؟

برز البيت الذى شرخه الزلزال من بين أشجار الموز .

اثنتا عشرة سنة غربة شرخها الزلزال فى لحظة .

اثنتا عشرة سنة أولاد دون أبيهم .

اثنتا عشرة سنة والرصيد بالدولار ينمو ..

وعائلة بل عائلات بلا بلد .. بلد كانت له الريادة يتعطل .

أحببت مصر فى تلك اللحظة وبكيت ، لقد حرمونا من العلم .. من الحياة ، عدت ..

جاء مدير المعهد إلى المؤتمر .

ذهبت به إلى الأهرامات وإلى أبو الهول وإلى الأنتكخانة وخان الخليلى .

ذهبت به إلى شبكة المعلومات فى جامعة عين شمس ، سأله مرافقنا عن بلده ، ضغط على بعض الأزرار . جاءت كلمة ينين على شاشة الحاسوب وجوارها رقم ٤٢ ، قال المرافق : إن ينين أنتجت ٤٢ بحثًا فى التربية ، ابتسم الرجل فرحًا .. علمت يومها أن مصر بها ٦٠,٠٠٠ باحث فى الفروع المختلفة .

مشيت مع الرجل فى صمت حتى وصلنا إلى العربة التى أقلتنا إلى الجامعة ، فى اليوم التالى حين أوصلته إلى المطار قال لى : إن مصر منارة أفريقيا ، أضاف : لقد بهرتنى شبكة المعلومات ، سوف أحدث أمينة المكتبة عنها .

فى الأسبوع التالى عدت إلى لجنة الدفاع عن الثقافة القومية .. عدت أيضًا إلى عملى ، رتبت بيتى ، بدأت فى كتابة خطابات طويلة إلى الأفارقة الذين قابلتهم بالمعهد أو بالوزارة والذين أرسلوا إلىّ كلمات مع مدير المعهد . ظلت بيتو أمام عينى فليس لديها عنوان وهى لا تقرأ فالشوارع هناك دون أسماء والبيوت ليست مرقمة .

الفهـــرس

المؤلـــف

ليلى مصطفى الشربينى

الدراسة :

* بكالوريا فرنسية شعبة رياضيات - ١٩٥٤ .
* بكالوريوس علوم - رياضة بحتة - كلية العلوم جامعة القاهرة ١٩٦٢ .
* شهادة الدراسات المتعمقة (M.Sc) فى الإحصاء الرياضى - جامعة باريس ١٩٦٦ .

العمل :

* مدرسة رياضيات - ليسيه باريس ١٩٦٣ : ١٩٦٦ .
* باحثة بوزارة الصحة الفرنسية ١٩٦٧ .
* باحثة بوزارة الصناعة الفرنسية ١٩٦٩ : ١٩٧١ .
* مدرسة إحصاء - جامعة الجزائر ١٩٧٢ .
* باحثة بمعهد الإحصاء - جامعة القاهرة ١٩٧٣ : ١٩٩٥ .
* أستاذة إحصاء بجامعة بنين القومية - جمهورية بنين ١٩٩٢ : ١٩٩٣ .

الكتب :

* الكرز - قصص قصيرة - مختارات فصول - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ .
* الآخر - قصص قصيرة - أصوات أدبية - الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٥ .
* النسبية - قصص قصيرة - كتابات جديدة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ .
* ترانزيت - رواية - مركز الحضارة العربية ١٩٩٧ .
* رجال عرفتهم - مركز الحضارة العربية ١٩٩٨ .
* الرجل - مركز الحضارة العربية ١٩٩٨ .
* مشوار - مركز الحضارة العربية ١٩٩٨ .

المقــالات :

حوالى ١٥ مقالاً عن العلم والتعليم :

١ - المحاور الأساسية للتعليم- الأهرام الاقتصادى - أغسطس ١٩٨٦ .

٢ - الحاسوب واللغة العربية - مجلة الكمبيوتر . مارس ٨٧ .

٣ - القضية التعليمية والمعاصرة - صوت العرب - مارس ١٩٨٧ .

٤ -كان أدبه معادلة رياضية (يوسف إدريس) - الشرق - أغسطس ١٩٩١ .

٥ - العلم والتحديات الثقافية - مجلة اليسار . مارس ٩٤ .

٦ - المرأة والإبداع العلمى - مجلة اليسار . مارس ٩١ .

٧ - البعد العلمى للثقافة - مجلة اليسار . نوفمبر ٩١ .

٨ - التعليم والإعلام وعملية القهر الذهنى- مجلة أدب ونقد- فبراير ٩١ .

٩ - نظرية المعلومات والتجربة العلمية - نشرة الثقافة العلمية (المجلس الأعلى للثقافة) . ديسمبر ٩٤ .

١٠ - أين نحن من منجزات العصر ؟ - جريدة الأهرام - الصفحة الثقافية - عدد الجمعة - سبتمبر ٨٨ .

١١ - الرياضيات فى التعليم الجامعى ضرورة - جريدة الأهرام - الصفحة الثقافية - عدد الجمعة - يونيه ٩٥ .

١٢ - الإبداع مطلوب والاغتراب مرفوض - الشرق - ديسمبر ١٩٩٢ .

١٣ - التعليم التلقينى - مجلة إبداع . عدد فبراير ١٩٩٧ .

١٤ - تحرير العقل لا يطلب فلوساً - مجلة اليسار . عدد ديسمبر ١٩٩٣ .

١٥ - اللغة العربية وأدوات - قضايا فكرية - مايو ١٩٩٧ .

١٦ - الإعلام وعصر الذكاء - إبداع - أغسطس ١٩٩٧ .

١٧ - التعليم التلقينى والبنية الذهنية الأصولية - القاهرة -اكتوبر ١٩٩٧ .

قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية

روايات ..

إينارو	د. علي فهمي خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس أبوولوس ترجمة د علي فهمي خشيم
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
الخروج إلى النبع	محمد قطب
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرجل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني

قصص قصيرة ..

مطرية الغروب	جمال الغيطاني
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
حرب بلاد نعم	خيرى عبدالجواد
حكايات الديب رماح	خيرى عبدالجواد
حرب أطاليا	خيرى عبدالجواد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
شجرة الخلد	سعد القرس
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
فرد حمام	يوسف فاخوري
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوه
الفوز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــد	عبده خال
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
الشاعر والحرامي	عزت الحريرى
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محي الدين

شعر ..

سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
قصائد حب من العراق	البياتي وآخرون
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
مثيــــا تناديـنــا	طارق الزياد
صلاة المودع	صبرى السيد
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
غربة الصبح	محمد الفارس
الغربة والعشق	مجدى رياض

عطر النغم الأخضر	عمر غراب
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد
فى مقام العشق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد
إذهب قبل أن أبكى	د. لطيفة صالح

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة	د.أحمد صدقى الدجانى
اللعبة الأبدية ... (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
مملكة القرود	محمود عبدالحافظ

دراسات ..

آلهة مصر العربية	د . على فهمى خشيم
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحيات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة

تراث ..

كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	د . أحمد الصاوى
رمضان .. زمان	د . أحمد الصاوى
القصص الشعبى فى مصر	إعداد خيرى عبد الجواد
إغاثة الأمة فى كشف الغمة	
الفاشوش فى حكم قراقوش	
الحكمة المدنية لابن المقفع	

فنون ..

ماهى السينما	صلاح أبو سيف
قضايا المونتاج المعاصر	د . عفت عبد العزيز
الصوت والضوضاء	د . مصطفى عبد المطلب

بالإضافة إلى :

كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .

خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.



٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨



تصوغ الكاتبة هنا قطعة هامة من تجربتها وسيرتها فى الحياة . مرحلة دراستها وعملها فى الشمال (فرنسا)، ومرحلة تدريسها وعملها فى الجنوب (أفريقيا) .

ولأن الكاتبة ابنة بارة للجنوب ، فإن رحلتها إليه مترعة بالدفء الانسانى وإرادة العطاء ودفع عجلة التقدم .

الناشر

